ألبير كامي

6.8.2017

الغريب



روايات جائزة نوبل

9

ترجمة د. محمد غطاس

الدار المصرية اللبنانية

الغريب

PASTURES OF HEAVEN

ألبيــر كامــى

نوبل عام / 1957

ترجمة د. محمد غطاس

روايات جائزة نوبل

9

الغريب

PASTURES OF HEAVEN

ألبير كامو

نوبل عام 1957

روايات جائزة نوبل
سلسلة تصدرها
الدار المصرية اللبنانية
المدير العام : محمد رشاد
رئيس التحرير : فتحى العشرى
الإعداد والصياغة : محمد فتحى
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 5824 / 1997
الترقيم الدولى : 9 - 359 - 270 - 977

الطبعة الثانية : ذو القعدة 1424 هـ - يناير2004م
الطبعة الثالثة : رمضان 1429 هـ - سبتمبر2008م


الجزء الأول

1

أمى ماتت اليوم . وربما كان ذلك بالأمس ، لست أدرى ! فقد تلقيت برقية من دار المسنين تقول : « ماتت الأم . الدفن غدا . تحيات طيبة . » وهذا لايعنى شيئا . فربما كان ذلك بالأمس .

تقع دار المسنين فى « مارينجو » ، على مسافة ثمانين كيلومترا من الجزائر العاصمة . سوف أستقل الأتوبيس فى الثانية فأصل هناك بعد العصر . وعليه سأقضى الليلة ثم أعود غدا فى المساء . لقد كنت قد طلبت يومين إجازة من رئيسى فى العمل ، ولم يستطع - هو - أن يرفض طلبا مشفوعا بمثل ذلك السبب . ولكنه لم يكن مسرورا . حتى إننى كنت قد قلت له : «إن ذلك ليس ذنبى » فلم يرد . ثم فكرت - فيما بعد - فى أنه لم يكن من المفروض أن أقول له ذلك . باختصار ، لم يكن هناك شىء يدفعنى إلى الاعتذار ، بل لقد كان عليه - هو - أن يقدم إلى تعازيه . ولابد أنه سيفعل ذلك بعد غد ، عندما يرانى فى ملابس الحداد . أما فى الوقت الراهن فإن كل شىء يسير كما لو كانت أمى لم تمت ، ولكن بعد الدفن سوف يكون الأمر قد انتهى ، وسوف يأخذ كل شىء مساره الطبيعى .

ركبت الأتوبيس فى الثانية . كان الجو حارا . قبلها كنت قد أكلت - كالعادة - فى مطعم « سيليست » . كان الحاضرون حزينين من أجلى . حتى إن سيليست نفسه قد قال لى : « ليس لنا - فى الحياة - سوى أم

واحدة . » وعندما انتهيت صحبونى حتى الباب . أحسست بشىء من الضيق ؛ فقد كان عَلَىّ أن أصعد لدى إيمانويل لأقترض منه رباط عنق أسود وشارة حداد . لقد فقد - هو الآخر - عمه منذ عدة شهور .

بعدها كان علىّ أن أركض حتى لا يفوتنى الأتوبيس . وبسبب تلك العجلة ، وذلك الجرى ، وربما أيضا بسبب التعب ، ورائحة البنزين ، واهتزازات الطريق ، والسماء - كنت قد غفوت . لقد استغرقت فى النوم طوال الرحلة تقريبا . وعندما استيقظت وجدت نفسى مكوما إلى جانب أحد العسكريين ، الذى ما إن رآنى أستيقظ حتى سألنى إن كنت قادما من بعيد . فقلت « نعم » وأغمضت عينى حتى لا أضطر إلى مزيد من الحديث .

كانت دار المسنين على بعد كيلو مترين فقط من القرية . فقطعت الطريق على قدمى ، لقد كنت أريد أن أرى أمى فى الحال ، ولكن الحارس قال : إن علىّ أن أذهب أولا لمقابلة المدير ، ونظرا لأن الأخير كان مشغولا ، فقد انتظرت قليلا. وطول وقت الانتظار كان الحارس يتكلم . ثم رأيت المدير : قابلنى فى مكتبه ، وهو عجوز قصير ، ويعلق فوق صدره وسام الشرف . نظر إلى بعينيه الرائقتين ، ثم شد على يدى واحتفظ بها وقتا كان طويلا حتى إننى لم أكن إعرف كيف أستعيدها منه ، ثم تفحص واحدا من الملفات وقال : « السيدة ميرسو قدمت إلى هنا منذ ثلاث سنوات، وكنت أنت عائلها الوحيد » فاعتقدت أنه سوف يعتب على شيئا ما ، وعليه فقد بدأت أشرح له ، ولكنه قاطعنى قائلا: « أنت لست فى حاجة إلى تبرير أفعالك ياولدى ، فأنا لدى هنا الملف الخاص بأمك ، وأنت لم تكن قادرا على تلبية احتياجاتها ، ثم إنه كان لابد لها ممن يرعاها ، ودخلك متواضع .

وبكل المقاييس كانت أمك أكثر سعادة هنا فقلت : « نعم ياسيدى المدير » فأضاف : « لقد كان لها هنا أصدقاء فى مثل سنها . فكانت لهم نفس الاهتمامات ، أما معك فأنت لازلت صغيرا ، ولابد أنها كانت ستضيق بصحبتك » .

لقد كان ذلك صحيحا . فعندما كانت تعيش معى ، كانت تقضى وقتها تتابعنى بعينيها فى صمت . وعندما دخلت إلى دار المسنين ، كانت تبكى كثيرا فى الأيام الأولى ، ولكن ذلك لم يَدُمْ ؛ فبعد عدة شهور كانت ستبكى إذا انتزعناها من تلك الدار . كانت قد تعودت عليها . وربما لذلك السبب ، لم أكن قد زرتها تقريبا فى السنة الأخيرة ، وأيضا لأن الزيارة كانت تكلفنى ضياع يوم الأحد - الذى هو يوم عطلتى الأسبوعية - دون الأخذ فى الحسبان كل المجهود اللازم لشراء التذاكر ، والذهاب إلى الأتوبيس والسفر لمدة ساعتين كاملتين .

راح المدير يتابع حديثه ، ولكننى لم أكن أنصت إليه ، ثم قال : «أعتقد أنك تريد أن ترى أمك » فاستويت واقفا دون أن أقول شيئا . وسبقنى هو إلى الباب . وعلى السلم راح يشرح لى : « لقد نقلناها إلى حجرة خاصة بعيدة ، حتى لاينزعج باقى النزلاء ، فكل مرة يموت فيها أحدهم ، يظل الباقون فى فزع لمدة يومين أو ثلاثة ، مما يؤدى إلى تعكير صفو الدار » ثم عبرنا فناءً به الكثير من المسنين الذين كانوا يتوقفون عن الحديث عندما كنا نمر بهم ، ثم يتابعون ثرثرتهم بعد مرورنا . وأمام باب إحدى البنايات الصغيرة غادرنى المدير وهو يقول : « سوف أتركك هنا ياسيد ميرسو . وسوف أكون رهن إشارتك فى مكتبى إذا احتجت إلى شىء . ومن حيث المبدأ ، فإن الدفن قد تحدد فى العاشرة من صباح الغد ، حتى تستطيع أن تسهر إلى

جانب الفقيدة . وهناك كلمة أخيرة : إن أمك قد أعربت لرفاقها – فى أكثر من مناسبة – عن رغبتها فى أن تتم مراسم دفن دينية ، وسوف أقوم بما ينبغى عمله فى ذلك الاتجاه ، ولكنى أردت فقط أن أخبرك « فشكرته . صحيح أن أمى لم تكن كافرة ، ولكنها فى حياتها لم تكن مطلقا تفكر فى الدين .

دخلت : كانت حجرة ناصعة البياض ، مطلية بالجير ، وبها العديد من المقاعد وحوامل خشبية على هيئة حرف . فوق اثنين من تلك الحوامل ، فى الوسط ، كان هناك تابوت عليه غطاء ، وكانت هناك مسامير لامعة لم يتم دقها فى الخشب حتى نهايتها .

وبعضها كان سقط فوق الأرضية الخشبية ، بالقرب من التابوت ، كانت هناك ممرضة عربية فى جلباب أبيض وتغطى رأسها بمنديل ملون .

فى تلك اللحظة دخل الحارس خلفى تماما ، وربما كان قد لحق بى جريا ، ثم قال فى تلعثم : « لقد وضعنا الغطاء ، ويجب أن أفك المسامير حتى يمكنك أن تراها » ثم اقترب من التابوت فأوقفته ، فقال : ألا تريد . . ؟ . فأجبت : «لا» فتوقف ، وعندما أحسست بالحرج فربما لم يكن من اللائق أن أقول ذلك ، نظر إلىَّ الرجل لحظة ثم سألنى لماذا؟ ولكنه قالها دون عتاب وكأنه يستفسر فقط ، فقلت : « لا أدرى » عندها ، راح يفتل شاربه الأبيض وهويقول دون أن ينظر إلى : « أنا أفهمك » كانت عيناه زرقاوين صافيتين ، وكان وجهه مشوبا بحمرة ، ثم ناولنى مقعدا ، وجلس هو الآخر إلى الخلف قليلا ، وعندما نهضت الممرضة وتوجهت ناحية باب الخروج ، قال لى الحارس « إنها مصابة بتقرح » . ونظرا لأننى لم أفهم مايعنيه ، فقد نظرت إلى الممرضة ورايت أنها تغطى وجهها بقناع أبيض اللون لاير ى منه

سوى عينيها . وعند مستوى الأنف كان القناع مسطحا ولا يرى تحته سوى الضمادات البيضاء على الوجه . عندما رحلت ، قال الحارس : «سوف أتركك وحدك » ولست أدرى ماالذى فعلته ، ولكن الرجل ظل واقفا خلفى، وكان وجوده يضايقنى . كانت الحجرة مليئة بضوء ما قبل الغروب الخافت الجميل . وكان هناك اثنان من الزنابير التى تطن خلف زجاج النافذة ، وأحسست بالنوم ينتابنى . فقلت للحارس ، دون أن ألتفت إليه : «هل تعمل هنا منذ مدة طويلة ؟ » فرد على الفور ، وكأنه ينتظر سؤالى هذا منذ أمد طويل : « خمس سنوات » بعدها ثرثر الرجل كثيرا ، وقال : إنه لم يكن ليصدق لوكنا قد قلنا له : إنه سينهى حياته حارسا فى دار للمسنين بمارينجو ، وإنه يبلغ من العمر الرابعة والستين ، وإنه من باريس . وعندما قاطعته : « آه ! إذن فأنت لست من هنا ؟ » ثم تذكرت أنه قبل أن يصحبنى إلى المدير كان قد حدثنى عن أمى ، وكان قد قال : إنه يجب دفنها على وجه السرعة ؛ لأن الجو حار فى هذه البلاد ، وكان عند ذلك قد أخبرنى أنه قد عاش فى باريس وأنه لا يستطيع أن ينسى ذلك . وأننا فى باريس يمكن أن نمكث مع الموتى ثلاثة أو أربعة أيام فى بعض الأحيان ، أما هنا فليس لدينا الوقت ، حتى إنه يجب علينا أن نجرى خلف عربة الموتى . وعند ذلك كانت زوجته قد قالت له : «اصمت ، فليست هذه أشياء يجب أن تقولها لذلك السيد » فاحمر الرجل ثم اعتذر . فتدخلت قائلا : « لا ، أبدا . . لا، أبدا » . فقد كنت أجد ما يقوله حقا ومثيرا للاهتمام .

فى حجرة الموتى ، كان قد أخبرنى أنه دخل إلى دار المسنين كمحتاج . ونظرا لأنه كان يشعر بالقدرة على العمل ، فقد اقترح أن يعمل حارسا . وكنت قد قلت : إنه فى الواقع ، يعتبر نزيلا عاديا ، ولكنه قال : لا .

وكنت قد صدمت من طريقته عندما يتكلم عن باقى النزلاء فيقول : « هم » أو «الآخرون» وأحيانا « المسنون » ، ورغم أن بعضهم لم يكن أكثر منه سنا . وبالطبع فلم يكن يجد أن هناك وجها للمقارنة ؛ فقد كان هو حارسا ، وعليه فقد كان يشعر -بعض الشيء - بأن له عليهم حقوقا .

كانت المرافقة قد دخلت فى تلك اللحظة ، وكان الظلام قد حل فجأة . والليل قد صار حالكا عبر النافذة ، فأدار الحارس مفتاح التيار فبهرنى الضوء المفاجىء ، ثم دعانى إلى مطعم الدار للعشاء ،ولكننى لم أكن جائعا، فعرض أن يحضر إلى قدحا من القهوة باللبن ، ونظرا لأننى أحب كثيرا القهوة مع اللبن فقد قبلت ، فذهب ثم عاد بعد لحظات حاملا صينية، فشربت . ثم أحسست بالرغبة فى التدخين ، ولكننى ترددت فلم أكن أعرف إذا ما كنت أستطيع أن أدخن أمام أمى . وعندما فكرت ، وجدت أن ذلك ليس له أية أهمية على الإطلاق ، فقدمت سيجارة إلى الحارس ورحنا ندخن .

بعد فترة ، قال : « إن أصدقاء السيدة والدتك سوف يأتون للسهر معها أيضا ؛ فتلك هى العادات . ويجب أن أذهب لإحضار المزيد من المقاعد والقهوة السوداء » . فسألته عما إذا كنا نستطيع إطفاء واحد من المصابيح ، فانعكاس الضوء على الحوائط البيضاء كان يزعجنى ، فقال : إن ذلك مستحيل ؛ فالتوصيلة الكهربائية كانت هكذا : إما كل المصابيح أو لا شىء على الإطلاق . بعد ذلك لم أعره شيئا كثيرا من الاهتمام . كان قد خرج ، ثم عاد ، ثم صف بعض المقاعد ، وفوق أحدها كان قد وضع شيئا من القهوة وبعض الأقداح ، ثم جلس فى مواجهتى فى الناحية الأخرى من أمى . وكانت المرافقة تجلس أيضا فى المؤخرة ، كانت تدير لنا ظهرها ، ولم أكن

أدرى ماتفعله ، ولكن من حركة ذراعيها ، يمكن أن أقول : إنها كانت تطرز. كان الجو دافئا ، وقد أعطتنى القهوة مزيدا من الدفء ، ومن الباب المفتوح كانت تهب علينا رائحة الليل والزهور ، وأعتقد أننى قد غفوت قليلا.

استيقظت على حركة خفيفة . وعندما فتحت عينى بدت لى الحجرة أكثر بياضا ولمعانا ، لم تكن هناك أية ظلال ؛ فكل الأشياء ، وكل الزوايا ، وكل المنحنيات كانت لامعة لمعانًا يؤذى العيون . وفى تلك الأثناء دخل أصدقاء أمى ، لم يكونوا يزيدون على العشرة ، وكانوا يمرقون فى صمت تحت تلك الأضواء المبهرة ، ثم جلسوا دون أن يصدر أى صوت عن أى مقعد. كنت أراهم بوضوح ، ولم يكن يغيب عنى أى من تفاصيل ملامحهم أو ثيابهم ، وبالرغم من ذلك لم أكن أسمعهم ، حتى إننى كنت أجد صعوبة فى تقرير حقيقة وجودهم . كل النسوة تقريبا كن يرتدين المرايل، وكانت الأربطة التى تشد تلك المرايل إلى أجسادهن تزيد من ظهور بطونهن المنتفخة ، حتى إننى لم أكن - إلى ذلك الحين - قد تخيلت إلى أى حد يمكن إن يكون حجم بطون النسوة المسنات . وكان كل الرجال تقريبا شديدى النحافة ويقبضون على عصى . ومن العجيب أننى لم أكن أرى لهم عيونا ، بل فقط نوعا من الضوء الباهت وسط أخدود من التجاعيد . وعندما جلسوا ، نظر إلىَّ معظمهم وأومئوا برءوسهم فى حرج ، وبشفاههم التى كانت تختفى داخل أفواههم عديمة الأسنان ، دون أن أدرى إذا ما كانوا يحيوننى أو أن ذلك لا يعدو فقط واحدة من عاداتهم . وهم يهزون رءوسهم من حول الحارس ،حتى إننى أحسست فى لحظة من اللحظات كأنهم كانوا قد اجتمعوا لمحاكمتى .

بعد قليل ، راحت واحدة من النسوة تبكى . كانت تجلس بالصف الأخير ، وتختفى خلف إحدى زميلاتها ، فلم أكن أراها بوضوح . كان بكاؤها على هيئة صرخات قصيرة منتظمة ، حتى إننى ظننت أنها لن تتوقف على الإطلاق ، وكان الآخرون يبدون وكأنهم لايسمعونها ، كانوا فقط يجلسون فى ضعف وحزن وصمت ، وكانوا ينظرون إلى التابوت أو إلى عصيهم ولا ينظرون إلى شيء آخر ، وكانت المرأة لازالت تبكى وتبكى !وكنت أتعجب لذلك ؛ لأننى لم أكن أعرفها . كنت أريد ألا أسمعها ، ولكنى لم أجرؤ على أن أقول لها ذلك ، فانحنى الحارس فوقها ، وتكلم معها ، ولكنها هزت رأسها ، وتمتمت ببعض الكلمات ، وواصلت بكاءها بنفس الانتظام. اقترب منى الحارس ، ثم جلس بجانبى ، وبعد برهة أخبرنى دون أن ينظر إلى : «لقد كانت كثيرة الارتباط بالسيدة والدتك . وتقول: إنها كانت صديقتها الوحيدة هنا ، والآن وقد رحلت فلم يعد لها أحد » .

مكثنا وقتا طويلا على تلك الحال . ومع الوقت قلت تنهدات وصرخات المرأة ، ثم توقفت فى نهاية الأمر . لم أعد أشعر بالنوم ، ولكنى كنت متعبا ، وأشعر بألم فى الكليتين ، لقد صار الصمت مؤلما . ومن وقت لآخر فقط كنت أسمع صوتا دون أن أدرى ماهو ، ومع الوقت اكتشفت أن بعض المسنين هم الذين كانت تصدر عن أفواههم تلك الطقطقة العجيبة ، ولم يكونوا هم يلاحظون ذلك ، فقد كانوا مشغولين بهمومهم ، حتى إننى كدت أعتقد أن تلك الميتة - المسجاة فى وسطهم - قد لاتعنى شيئا بالنسبة لهم ، ولكننى أومن الآن أن ذلك كان اعتقادًا خاطئا .

ثم شربنا القهوة التى قدمها لنا الحارس ، وبعدها ، لا أدرى ما حدث . مرت الليلة . وأذكر أننى كنت قد فتحت عينى فوجدت أن المسنين ينامون

جميعا ، فيما عدا واحدا فقط ، كان يضع ذقنه فوق ظهر يديه المستندتين إلى عصاه ، وكان ينظر إلى وكأنه لا ينتظر سوى أن أستيقظ ، ثم نمت ثانية . وبعدها استيقظت على ألم متزايد فى الكليتين ، ثم بدأ الصبح ينبلج فوق النافذة . وبعدها استيقظ أحد المسنين واستمر يسعل لمدة طويلة ، فأيقظ الآخرين ، وعندما قال الحارس : إن عليهم أن يرحلوا ، نهضوا . كانت تلك الليلة غير المريحة قد أعطت لوجوههم لونا كالرماد . وعند خروجهم - دهشت كثيرا ؛ لأنهم راحوا جميعا يشدون على يدى ، وكأن تلك الليلة التى قضيناها معا - دون أن نتبادل كلمة واحدة - قد زادت الألفة بيننا .

لقد كنت منهكا . ولقد أخذنى الحارس إلى حيث يقطن ، فاغتسلت وشربت بعض القهوة باللبن وكانت لذيذة . وعندما خرجت ، كان النهار قد طلع تماما ، وكانت السماء تميل إلى الاحمرار ، فوق المرتفعات التى تفصل مارينجو عن البحر ، وكانت الرياح القادمة تحمل إلينا رائحة من الملح . لقد كان واضحا أنه سيكون جميلا . لقد انقضى وقت طويل منذ أن كنت قد ذهبت إلى الريف ، ولقد أحسست بالمتعة حتى إننى كنت سأذهب للنزهة إن لم تكن هناك أمى .

رحت أنتظر فى الفناء . كنت أشم رائحة الأرض حديثة الحرث ، ولم أعد فى حاجة إلى النوم ، ثم فكرت فى زملائى بالمكتب ، لابد أنهم يستيقظون فى تلك الساعة للذهاب إلى العمل ، إنها من أصعب الساعات بالنسبة لى . وبينما كنت أفكر فى تلك الإشياء ، إذا بجرس يدق داخل المبنى . وعلى إثر ذلك حدثت جلبة خلف النوافذ ، ثم هدأ كل شىء . كانت الشمس قد صعدت أكثر إلى السماء ، وبدأت تبعث بالحرارة إلى قدمى . عبر الحارس الفناء وقال : إن المدير يطلبنى ، فذهبت إلى مكتبه ، فجعلنى أوقع على

بعض الأوراق . وقد لاحظت أنه كان يرتدى ملابس سوداء وبنطلونا مخططا، ثم تناول التليفون وقال : « إن عمال الدفن موجودون هنا منذ فترة . وسوف أطلب إليهم أن يغلقوا التابوت . فهل ترغب فى رؤية أمك مرة أخيرة؟ » فقلت : لا . فأصدر أمرا تليفونيا : « فيجاس ، قل للرجال أن يبدءوا عملهم » .

ثم قال لى : إنه سوف يحضر مراسم الدفن ، وقد شكرته . فجلس خلف مكتبه ، وعقد ساقيه القصيرتين ، ثم أخبرنى بأننا - هو وأنا - سنكون وحيدين مع الممرضة المناوبة فقط ؛ فالنزلاء لا يسمح لهم فى العادة بحضور الدفن . فهو يتركهم فقط يسهرون إلى جانب الميت ، مراعاة - كما قال - « للناحية الإنسانية » . ولكنه فى هذه المرة قد أعطى الإذن لأحد أصدقاء أمى المسنين ويدعى « توماس بيريز » أن يصحب الركب . قال المدير ذلك وهو يبتسم ، ثم أضاف « إنها نوع من العاطفة الصبيانية . ولكنه والسيدة والدتك كانا صديقين لا يفترقان . وفى الدار كان النزلاء يمازحونهم، وكانوا يقولون لبيريز : « إنها خطيبتك » فكان يضحك ، وكان يسعدها ، وقد تأثر لموتها تأثرا كبيرا ، فلم أستطع أن أرفض طلبه بالحضور ، ولكن وبناء على نصيحة الطبيب فقد منعته من أن يسهر ليلة أمس » .

جلسنا فى صمت لفترة طويلة ، ثم نظر المدير من النافذة ، وبعد لحظات قال : « ها هو قس مارينجو قد حضر قبل موعده » ثم أخبرنى أن المسافة إلى كنيسة القرية تستغرق ثلاثة أرباع الساعة على الأقل . هبطنا الدرج ، وأمام المبنى كان هناك القس واثنان من أطفال القداس ، وكان أحدهما يحمل موقدا للبخور ، فانحنى القس ناحيته وراح يضبط طول

السلسلة الفضية . عندما وصلنا نهض القس واقفا ، وناداني بقولة « يابنى » وقال بعض الكلمات . ثم دخل الحجرة فتبعته .

كانت مسامير التابوت قد دقت تماما . وكان هناك أربعة رجال يتشحون بالسواد ، فى نفس الوقت سمعت المدير يقول : إن العربة تنتظر على الطريق وإن القس قد بدأ صلواته بالفعل ، ثم خرجنا : المدير وأنا . وأمام البيت ، كانت هناك سيدة لا أعرفها ، فقام المدير بواجب التعارف قائلا : «السيد ميرسو » . ولكنى لم أسمع اسمها بل فهمت فقط أنها الممرضة المناوبة . وأحنت هى - دون أن تبتسم ـ وجهها العظمى الطويل ، ثم اصطففنا لنسمح لأمى بالمرور ، ورحنا نتبع الحمالين ، حتى خرجنا من الدار . أمام الباب كانت هناك العربة ، طويلة ، لامعة . إلى جانبها كان هناك القائد ، وهو رجل قصير ذو ملابس مضحكة ، وعجوز آخر يبدو فى حالة ذهول . ففهمت أنه السيد «بيريز » . كان يرتدى قبعة طرية ذات حواف مستديرة عريضة (خلعها عندما مر التابوت من الباب) ، وبذلة ذات سروال يضيق عند الحذاء ، ورباط عنق أسود صغير بالنسبة لياقته البيضاء ، وكانت شفتاه ترتعشان تحت أنفه المزين بالكثير من النقاط السوداء ، وشعوره البيضاء تخرج من بينها أذناه الكبيرتان المتهدلتان بلونهما الأحمر الذى يتعارض تماما مع وجهه الشاحب .

كان القس يسير فى المقدمة ، تتبعه العربة ، ومن حولها الرجال الأربعة ، وفى الخلف كان هناك المدير وأنا ، وفى مؤخرة الركب الممرضة المناوبة والسيد بيريز .

كانت السماء امتلأت بالشمس . وبدأت حرارتها تثقل على الأرض وتزيد بسرعة من سخونتها . ولست أدرى لماذا انتظرنا طويلا قبل أن نبدأ المسير .

كنت أشعر بالحرارة تحت ملابسى السوداء . رحت أنظر إلى الريف من حولى عبر أشجار السرو الباسقة الممتدة حتى المرتفعات القريبة من السماء ، وإلى الأرض البنية والخضراء ، وإلى البيوت القليلة الجميلة . لابد أن يكون الليل فى تلك البقاع هادئا وحزينا .

ثم بدأنا المسير ، فلاحظت أن « بيريز » كان به عرج خفيف . ومع الوقت كانت العربة تزيد من سرعتها ، وكان هو يتأخر . واحد من الرجال المحيطين بالعربة تأخر هو أيضا ، وصار يسير بمحاذاتى . كنت مندهشا من السرعة التى صعدت بها الشمس إلى كبد السماء ، وكنت قد لاحظت منذ فترة أن الريف من حولنا قد امتلأ بطنين الحشرات وطقطقة الأعشاب . وبدأ العرق يسيل فوق جبينى ، ونظرا لأنه لم يكن بحوزتى قبعة ، فقد كنت أروح عن وجهى بمنديلى ، فقال لى عامل الدفن شيئا لم أسمعه ، وفى نفس الوقت راح يمسح رأسه بمنديل فى يده اليسرى ، فيما كانت يده اليمنى ترفع حافة قبعته ، فقلت له : « ماذا ؟ » فردد وهو يشير إلى السماء : « إنها تحرق» فقلت : «نعم» وبعد قليل سألنى : « هل هذه والدتك ؟ » فقلت ، « نعم» فقال : « وهل كانت عجوزًا ؟ » فقلت : « بعض الشىء لأننى لم أكن أعرف عمرها على وجه التحديد » وبعدها صمت الرجل . استدرت فرأيت بيريز العجوز على بعد خمسين مترا إلى الخلف . كان يسرع الخُطَا وقبعته تتأرجح فى يده . ورأيت المدير أيضا ، كان يمشى فى هدوء ، دون أية حركة زائدة ، وبعض قطرات العرق كانت تلمع فوق جبهته ، ولكنه لم يمسحها .

ثم خيل إلىّ أن الركب قد زاد من سرعته . ومن حولى ، كان الريف ـ كما هو ـ وضاءً يفيض بالشمس ، وبالسماء اللامعة . وفى وقت ما كنا قد مررنا

فوق جزء من الطريق حديث الرصف ، وكانت الشمس قد أذابت القار . فكانت الأرجل تغوص به وتفتح فيه أخاديد لامعة ، وفوق العربة كانت قبعة الحوذى ، المصنوعة من الجلد المدبوغ ، تبدو وكأنها قد خلطت بتلك العجينة السوداء .

كنت أحس بالدوار ، بين ألوان السماء الزرقاء والبيضاء والقار الأسود اللامع ، والملابس السوداء الداكنة ، والعربة السوداء الناصعة . كل هذا ، إضافة إلى الشمس ورائحة الجلد والروث والطلاء ، والبخور ، وتعب ليلة الأمس ـ كل هذا وذاك كان يزيغ منى الفكر والبصر . واستدرت مرة ثانية : خيل إلى أن بيريز كان بعيدا جدا ، ضائعا وسط هالة من الحرارة . ثم لم أره بعد ذلك ، فبحثت عنه بعينى فوجدت أنه كان قد ترك جادة الطريق وراح يعبر الحقول . ونظرا لأن الطريق أمامى كان معوجا ، فقد فهمت أن بيريز - الذى كان يعرف جيدا تلك البقاع - كان يختصر الطريق ليلحق بنا . وبالفعل لحق بالركب عند المنعطف ، ثم فقدناه من جديد ، فلقد راح يعبر الحقول وهكذا عدة مرات ، ثم أحسست بالدماء تضرب فى رأسى .

بعد ذلك مر كل شىء فى سرعة وثقة حتى إننى لم أعد أذكر شيئا . هناك شىء واحد فقط : عند مدخل القرية ، كلمتنى الممرضة المناوبة ، وكان لها صوت لا يتناسب مع وجهها ، صوت رخيم مرتعش ، قالت : « إذا سرنا ببطء فقد نصاب بضربة شمس ، وإذا أسرعنا فسوف نبتل بالعرق ، وفى الكنيسة سوف يصيبنا البرد ، لقد كانت على حق ، فليس هناك من مخرج مضمون . إن هناك أيضا بعض المناظر التى لازلت أذكرها : مثلا ، وجه بيريز عندما لحق بنا بالقرب من القرية للمرة الأخيرة ، ففوق ذلك الوجه كانت هناك دموع كبيرة ناجمة عن الحزن والتعب ، ولكنها لم تكن تسيل

نتيجة التجاعيد . بل كانت تمتد وتتلاقى وتكون طبقه من المياه فوق ذلك الوجه المحطم .

كان هناك أيضا منظر الكنيسة والفلاحين فوق الأرصفة ، والورود الحمراء فوق المقابر والإغماءة التى أصابت بيريز ، ثم الأرض التى فى لون الدم التى كانوا يهيلونها فوق أمى ، والجذور البيضاء المختلطة بها ، والفاس ، والأصوات ، والقرية ، والانتظار أمام المقهى ، وضوضاء الموتور التى لا تنتهى ، ثم سعادتى عندما دخل الأتوبيس إلى أضواء الجزائر العاصمة وعندما فكرت فى أننى سوف أنام الاثنتى عشرة ساعة القادمة .

عندما استيقظت ، فهمت لماذا كان رئيسى يبدو غاضبا حينما طلبت إليه يومين إجازة . . . فإن اليوم هو السبت . لقد كنت نسيت ذلك ، ولكن ما إن استيقظت حتى راودتنى تلك الفكرة . فرئيسى - وهذا طبيعى - كان قد فكر فى أننى سوف ينتهى بى الأمر للحصول على أربعة أيام إجازة ، عند إضافة يومى السبت والأحد ، وذلك شىء لايمكن أن يسعده . ولكن - من ناحية - فليس الذنب ذنبى إذا كانوا قد دفنوا أمى أمس بدلا من اليوم . ومن الناحية الأخرى ، فإننى كنت سآخذ السبت والأحد فى جميع الإحوال . ولكن كل ذلك بالطبع لا يمنع من أن أتفهم موقف رئيسى فى العمل .

كان النهوض صعبا ؛ لأننى كنت لا أزال متعبا منذ يوم أمس . وبينما كنت أحلق ذقنى رحت أتساءل عما سأفعله ، ثم قررت أن أذهب للاستحمام . أخذت الترام للذهاب إلى حمامات الميناء ، وهناك نزلت إلى المياه . كان هناك خلق كثير . وقابلت أيضا فى الماء مارى كاردونا موظفة الآلة الكاتبة السابقة بالمكتب ، التى كنت أحلم بها فى ذلك الوقت ،

وكانت هى تحلم بى على ما أعتقد ، ولكنها كانت قد رحلت ، فلم يكن لدينا الوقت . ساعدتها على أن تصعد فوق عوامة ، وأثناء ذلك تعمدت أن ألمس صدرها . كنت لازلت تحت الماء فيما كانت هى ترقد فوق العوامة ، ثم استدارت ناحيتى ، كان شعرها يتهدل فوق عينيها فيما كانت تضحك ، قفزت إلى جانبها فوق العوامة ، كان الجو جميلا ، وتظاهرت بالمزاح فأملت برأسى إلى الخلف حتى استقر فوق بطنها ، فلم تقل - هى - شيئا ، وبقيت - أنا - على تلك الحال ، كانت السماء أمام عينى جميلة ذهبية زرقاء ، وتحت رقبتى كان بطن مارى ينبض فى رقة . بقينا وقتا طويلا - شبه نائمين - فوق العوامة . وعندما اشتدت الشمس ، ألقت مارى بنفسها فى الماء ، فتبعتها حتى لحقت بها وأحطت خاصرتها بذراعى ، ورحنا نسبح معًا ، وكانت لاتزال تضحك . وعلى الرصيف ، عندما كنا نجفف أجسادنا قالت : « أنا أكثر منك سمرة » فسألتها إن كانت ترغب فى الذهاب إلى السينما هذا المساء، فضحكت وقالت : إنها تريد أن ترى فيلما من أفلام «فرنانديل » . عندما ارتدينا ملابسنا ، بدت وكأنها مذهولة لكونى أرتدى رباط عنق أسود، وسألتنى إذا كنت فى حداد ، فقلت : إن أمى قد ماتت ، فأرادت أن تعرف منذ متى فأجبت : « منذ الأمس » فتراجعت للخلف فى دهشة ، ولكنها لم تقل شيئا . كنت أريد أن أقول لها : إن ذلك ليس ذنبى ، ولكننى توقفت لأننى تذكرت أننى كنت قد قلت ذلك لرئيسى من قبل ، ثم إن هذا قد لايعنى شيئا . وعلى أيه حال ، فنحن دائما خطاءون .

فى المساء كانت مارى قد نسيت كل شىء . كان الفيلم مضحكا فى بعض الأحيان ، ولكنه كان أحمق فى غالبها .وكانت ساقها ملتصقة

بساقى، فرحت أداعب ثدييها . وقرب نهاية الفيلم قبلتها ، وعند الخروج جاءت معى إلى البيت .

عندما استيقظت ، كانت مارى قد رحلت . لقد كانت قد شرحت لى أنها يجب أن تذهب لزيارة خالتها ، ثم تذكرت أن اليوم هو الأحد ، وقد ضايقنى ذلك ، فلم أكن أحب إيام الآحاد ، وعليه فقد استدرت فى سريرى، وفوق رائحة الملح التى كانت شعور مارى قد تركتها استغرقت فى النوم حتى الساعة العاشرة ، ثم دخنت بعض السجائر فى السرير حتى قارب النهار على الانتصاف . لم أكن أريد تناول طعام الغداء عند سيليست كالعادة ، لأنه بالتأكيد سوف يطرح على الكثير من الأسئلة ، وأنا لا أحب ذلك . وعليه فقد قمت بطهى بعض البيض وأكلته بدون خبز ؛ لأننى لم أكن أريد أن أخرج من البيت ، خصيصا لشراء الخبز .

بعد الغداء أحسست بقليل من الضيق ، فرحت أدور فى الشقة . لقد كانت مناسبة عند ما كانت أمى هنا ، أما الآن فقد صارت كبيرة لى وحدى ، حتى إننى قد نقلت طاولة الطعام إلى غرفتى ، فلم أعد أحتاج إلى غير تلك الغرفة ، ولم أعد أعيش إلا فيها بين مقاعد القش القديمة ، وخزانة الثياب ذات المرآة التى أصابها الاصفرار ، والسرير النحاسى القديم ، وكل ماعدا ذلك فمصيره إلى الإهمال . ولكى أفعل شيئا فقد تناولت صحيفة قديمة ورحت أقرؤها ، ثم قطعت إعلانا عن نوع من أنواع الملح ولصقته فى كراسة قديمة ، تعودت أن ألصق بها كل ما أجده فى الصحف مما يبعث على الضحك ، ثم غسلت يدى ، وذهبت أجلس فى الشرفة .

كانت حجرتى تطل على الشارع الرئيسى . وكان الجو جميلا ، ومع ذلك لم يكن هناك إلا القليل من الناس المسرعين . فى البداية كانت عائلات

تذهب للنزهة : طفلان صغيران يرتديان ملابس البحارة وبنطلونات قصيرة فوق الركبة ويتعثران فى المسير ، وبنت صغيرة برباط شعر وردى اللون كبير الحجم وحذاء أسود لامع ، وإلى الخلف أم ضخمه فى ثوب من الحرير البنى وأب قصير نحيف كنت قد رأيته من ذى قبل ، كان يرتدى قبعة من القش ، ورباط عنق كالفراشة وبيده عصا . عندما رأيته مع زوجته ، فهمت لماذا يلقبونه فى الحى بالمحترم . بعد قليل راح الشباب يمرون ، شعور مدهونة ، وأربطة عنق حمراء ، وجاكتات تضيق عند الخاصرة ، بجيوب مشغولة وأحذية عريضة ، ففهمت أنهم ذاهبون إلى السينما ؛ ولذلك كانوا يرحلون مبكرين ، وكانوا مسرعين إلى ناحية الترام وهم يضحكون بقوة .

بعد ذلك صار الشارع خاليا من المارة . ويبدو أن الأفلام فى دور العرض قد بدأت فى ذلك الوقت ؛ فلم يعد بالشارع سوى أصحاب الحوانيت والقطط . كانت السماء صافية دون بريق واضح فوق أشجار الفيكس على جانبى الطريق . وعلى الرصيف المقابل ، أخرج بائع التبغ مقعدًا وضعه أمام حانوته ثم امتطاه واتكأ بذراعيه فوق مسنده . والترام الذى كان مزدحما منذ فترة قد صار فارغا الآن . وفى « مقهى بيرو » الصغير، إلى جانب بائع التبغ ، راح الصبى يكنس الصالة الخالية . إنه حقا يوم الأحد .

أدرت معقدى ووضعته كما فعل بائع التبغ حيث وجدت أن ذلك أكثر راحة ، ودخنت سيجارتين ، ثم دخلت لأجلب قطعة من الشيكولاته ، وعدت ألتهمها أمام النافذة . بعد قليل اسودت السماء ، فاعتقدت أنها سوف تمطر ، ولكنها عادت فتكشفت بعد قليل ، لكن تلك الزوبعة كانت قد تركت الشوراع فى ظلام ، فجلست وقتا طويلا أنظر إلى السماء .

عند الساعة الخامسة وصلت بعض الترامات فى ضوضاء ، وكانت محملة

بمجموعات من المتفرجين القادمين من أحد ملاعب الضواحى . الترامات التالية كانت تحمل اللاعبين أنفسهم ، فقد تعرفت عليهم من حقائبهم الصغيرة المتشابهة . كانوا يغنون ويصرخون ملء حناجرهم بأسماء ناديهم ، وبعضهم أشار إلى بالتحية ، وأحدهم صرخ قائلا : « لقد هزمناهم ! » فهززت رأسى وأنا أقول « حسنا » . ومنذ تلك اللحظة بدأت السيارات تتوافد .

فوق الأسطح كانت السماء قد احمرت ، ومع مولد المساء بدأت الشوارع تمتلىء ، فقد عاد المتنزهون قليلا قليلا . وهاهو السيد المحترم وسط الآخرين . وكان الأطفال يبكون ويمشون إلى الخلف متكاسلين ، ثم دفعت دور السينما بحشود من المتفرجين إلى الشارع . كان الشباب يروحون ويجيئون على الرصيف المقابل ، وكانت فيتات الحى يمشين متماسكات الأيدى ، وكان الشباب يمشون خلفهن ويلقون إليهن ببعض النكات ، فكن يضحكن ويُدِرْنَ رءوسهن ، وبعض ممن كنت أعرفهن أشرن إلى بالتحية .

ثم أضيئت مصابيح الشوراع فجأة ، فشحبت النجوم القليلة التى كانت قد ظهرت فى الليل . أحسست أن عينى متعبتان من النظر إلى الأرصفة وماعليها من الناس والأضواء ، كانت المصابيح تعكس أضواءها فوق كل شىء ، حتى الشعور اللامعة ، والابتسامات ، والحلى . بعد قليل صارت الترامات أقل ، وصار الليل حالكا فوق الأشجار والمصابيح ، وخلا الشارع من الناس ، وبدات القطط تعبر الشارع فى بطء ، عند ذلك فكرت فى أننى يجب أن أتناول بعض الطعام . كنت أشعر ببعض الألم فى الرقبة ؛ لأننى مكثت لفترة طويلة مستندا إلى ظهر المقعد. نزلت واشتريت بعض الخبز والمكرونة ،ثم طهوت بعض الطعام وتناولته واقفا ، ثم أردت أن أدخن

سيجارة أمام النافذة ، ولكن الهواء كان قد صار باردا وكنت أشعر بالقشعريرة . أغلقت النافذة وعدت إلى الداخل وأنا أفكر فى أن هذا هو يوم أحد آخر قد ولى دون رجعة ، وأن أمى قد دفنت ، وأننى سأعود غدا إلى العمل ، وأنه - فى نهاية الأمر - لاشىء قد تغير .

اليوم ، فى المكتب ، عملت كثيرا ودون توقف . وكان رئيسى طيبا . وقد سألنى عما إذا كنت متعبا وأيضا عن سن أمى ، فقلت « حوإلى الستين » ، حتى لا أكون مخطئا ، ولا أعرف لماذا بدا عليه الارتياح واعتبر أن الأمر قد انتهى .

كان هناك الكثير من الأوراق ومستندات الشحن فوق مكتبى ، وكان على أن أعمل على تصريفها . قبل مغادرة المكتب للغداء غسلت يدى ، عند منتصف النهار أجد دائما سعادة فى ذلك الغسيل ، أما فى المساء فإن المنشفة الدوارة التى نستخدمها تكون مبتلة تماما . فى يوم من الأيام أبديت تلك الملاحظة أمام رئيسى ، فقال إن ذلك امر مؤسف ، ولكنه مع ذلك عديم الأهمية . خرجت من المكتب متأخرا - فى الثانية عشرة والنصف - بصحبة إيمانويل ، الذى يعمل فى التوزيع . وحيث إن المكتب يقع فى مواجهة البحر ، فقد قضينا بعض الوقت ننظر إلى سفن الشحن فى الميناء الذى تلهبه الشمس . فى تلك اللحظة وصلت عربة نقل وسط جلبة كبيرة . فقال إيمانويل « هيا نلحق بها » فرحت أجرى . سبقتنا العربة فانطلقنا فى إثرها . كنت تائها وسط الضوضاء والتراب . ولم أعد أوى شيئا أو أحس شيئا سوى ذلك الجرى غير المنتظم وسط الرافعات والآلات والقوارب والصوارى التى كانت تتراقص فى الأفق . لحقت بالعربة وقفزت فوقها وهى

منطلقة ، ثم ساعدت إيمانويل . كنا نتنفس بصعوبة فيما كانت العربة تقفز فوق بلاط الرصيف غير المستوى ، وسط التراب وأشعة الشمس .

كنا نتصبب عرقا حينما وصلنا عند سيليست . كان دائما كما تعودناه ، بمريلته وكرشه الكبير وشاربه الأبيض ، فسألنى « إذا ما كانت الأمور على مايرام رغم ماحدث » ، فأجبته بنعم وقلت : إننى جائع . أكلت بسرعة وشربت قهوة ، ثم عدت إلى البيت ، حيث نمت قليلا ؛ لأننى كنت قد شربت بعض النبيذ . عند الاستيقاظ أحسست برغبة فى التدخين . كان الوقت قد تأخر ، فجريت كى ألحق بالترام . عملت بجد طوال فترة مابعد الظهيرة . كان الجو حارا بالمكتب ، وفى المساء عند الخروج ، كنت سعيدا بالعودة فى بطء مشيا على الأقدام على طول الميناء . عدت مباشرة إلى البيت ؛ فقد كنت أريد إعداد بعض البطاطس المسلوقة .

بينما كنت أصعد السلم المظلم ، وقعت على سالامانو العجوز ، جارى فى نفس الطابق . كان برفقة كلبه ، فمنذ ثمانى سنوات وهما لايفترقان . كان الكلب مصابا بمرض جلدى - الحكة - فيما أعتقد ، مما أفقده كل شعره تقريبا وغطى جلده بحراشيف بنية اللون ، ونظرا لأنهما كانا يعيشان معا وحيدين فى نفس الحجرة الضيقة ، فقد انتهى الأمر بأن صارا متشابهين ؛ فسالامانو قد امتلأ وجهه بحراشيف تميل إلى الاحمرار فيما تحولت شعيراته القليلة الباقية إلى الاصفرار ، وفيما اكتسب الكلب من سيده ذلك الهيكل المحدب والرقبة المشدودة والرأس المائل إلى الأمام . كانا كمن خلقا من نفس السلالة ، ومع ذلك كانا دائمى العداء مرتين يوميا ، فى الحادية عشرة وفى السادسة ، كان الرجل يصحب كلبه للنزهة ، منذ ثمانى سنوات لم يتغير لهما ميعاد أو خط سير ، فعلى امتداد شارع ليون ، كان الكلب يجذب الرجل ،

ويستمر ذلك إلى أن يصرخ فيه سالامانو العجوز ، ثم يسبه ويضربه . عند ذلك يرقد الكلب من الخوف ويترك نفسه يجر ، ويصبح على العجوز أن يجذبه . بعد فترة يكون الكلب قد نسى ، فيبدأ من جديد جذب سيده ، الذى لا يلبث أن يسبه ويضربه من جديد ، وعندها يقف الاثنان فوق الرصيف يتبادلان النظرات ، الكلب فى رعب ، والرجل فى حقد . وهكذا كل يوم . وعندما يريد الكلب أن يتبول ، لم يكن العجوز يترك له الوقت ليتم ذلك ، وكان يجذبه ، فكان الكلب يترك وراءه خطا طويلا من نفط البول الصغيرة ، وإذا تصادف أن تبول الكلب فى الحجرة ، فإنه يضرب على ذلك ، وهذا هو الحال منذ ثمانى سنوات وحتى اليوم .

سيليست يقول إن « ذلك أمر محزن » ولكن ما من أحد – فى الواقع – يعرف ما هو المحزن فى الأمر . عندما وقعت عليه ، كان سالا مانو يسب كلبه . كان يقول له : « ياقذر ! ياجيفة ! » وكان الكلب يتوجع ، فقلت : « مساء الخير » ، فلم يرد ، كان فقط يقول « قذر ! جيفة ! » فيما كان منحنيا فوق كلبه ، محاولا إصلاح سلسلته المعدنية ، فرفعت من صوتى ، وعندها قال فى غضب : « ألايزال – ذلك الرجل – هنا ! » ثم رحل وهو يجذب الحيوان الذى كان يتألم .

فى تلك اللحظة ، دخل جارى الثانى بالطابق ، فى الحارة ، يقولون : إنه يكسب قوته من وراء النساء . وإذا سأله أحد عن مهنته كان يقول : إنه «يعمل بأحد المتاجر» بصفة عامة لم يكن ذلك الرجل محبوبا ، لكنه كان يكلمنى كثيرا ، وفى بعض الأحيان ، كان يمضى لدى بعض الوقت ؛ لأننى كنت أنصت إليه ، وأجد ما يقوله مهما ، وليس عندى – على أية حال – من الأسباب ما يمنعنى من التحدث إليه . اسمه ريمون سينتيس ، قصير

القامة ، عريض المنكبين ، وله أنف يشبه أنوف الملاكمين ، ويحافظ دائما على أن يكون ملبسه لائقا . ولقد قال أيضا وهو يتحدث عن سالا مانو : «أليس ذلك أمرا محزنا ! وسألنى إن كان الأمر يسبب لى القرف ، فأجبته بالنفى .

صعدنا إلى الطابق ، وعندما كنت على وشك أن أتركه قال : « يوجد لدى بعض السجق وبعض النبيذ ، فهل تريد أن تأكل شيئا من ذلك معى؟ » فوجدت أن ذلك سيعفينى من مهمة الطبخ ، ووافقت . هو أيضا ليس لديه سوى حجرة واحدة ، ومطبخ بدون نافذة . فوق سريره كان هناك تمثال لملاك من الرخام الوردى والأبيض ، وبعض صور المشاهير ، وصورتان أو ثلاث لنسوة عاريات . كانت الحجرة قذرة والسرير غير منظم . فى بادىء الأمر ، أشعل الرجل مصباح البترول ، ثم أخرج من جيبه رباطًا عجيبًا وراح يربط يده اليمنى ، فسألته عما به ، فقال : إنه تشاجر مع شخص كان قد تحرش به .

وأضاف : « أتعرف ياسيد ميرسو ، أنا لست فظا ، ولكننى حامى الطباع . لقد قال لى ذلك الشخص : « انزل من الترام إن كنت رجلا » ، فقلت له « تعقل وكن هادئا » فقال : إنك لست رجلا . فنزلت وقلت له : « يكفى هذا وإلا فسوف أسويك » فقال باستفزاز ماذا ؟ ، فناولته واحدة ، فسقط أرضا ، فرحت أرفعه فرفسنى بقدمه وهو على الأرض ، فما كان منى إلا أن ضربته بركبتى ، فسالت الدماء من وجهه ، وعندها سألته إن كان هذا يكفيه ، فقال : « نعم » .

فى أثناء كل ذلك الوقت ، كان سينتيس يعالج رباطه ، فيما كنت جالسا

على حافة السرير . فأضاف : « ومن ذلك يمكنك أن ترى بنفسك أننى لم أكن البادىء . بل هو الذى أثارنى » . فقلت له : إن ذلك صحيح . عند ذلك أوضح أنه يريد أن يطلب إلى النصيحة فى تلك المسألة ؛ لأننى - من وجهة نظره - رجل قد خبرت الحياة وأستطيع مساعدته ، وعندها سنصير أصدقاء ، فلم أقل شيئا ، فسألنى إن كنت أريد أن أكون صديقه ، فقلت: إن الأمر يتساوى لدى ، فظهر عليه السرور ، ثم أخرج السجق وقام بطهيه فى المقلاة ، وفى صمت وضع الأكواب والأطباق وزجاجتين من النبيذ .

أثناء الطعام بدأ يروى حكايته . تردد فى البداية ، ثم قال : « إننى أعرف سيدة - ولكى أكون دقيقا - فإنها كانت عشيقتى » وراح يقول : إن الرجل الذى تشاجر معه هو شقيق تلك المرأة ، وإنه يعرف مايقولونه عنه فى الحارة، ولكنه رجل على خلق وإنه يعمل بأحد المتاجر. ولم أقل شيئا .

ثم راح يقول : أعود إلى حكايتى ، لقد لاحظت أن هناك خدعة » وأخذ يضيف أنه كان يعطيها ما يكفى بالضبط لكى تعيش ، وكان يدفع بنفسه إيجار حجرتها ، ويعطيها عشرين فرنكا فى اليوم للطعام . ثلاثمائة فرنك للحجرة ، وستمائة للطعام ، وزوجًا من الجوارب بين الحين والآخر ، مما يصل إلى الألف فرنك . وحضرتها لم تكن تعمل ، وكانت تقول : إن ذلك طبيعى وتشتكى من قلة ما أعطيه لها ، فقلت لها : ولم لاتعملين ولو لنصف اليوم ؛ لتخففى عنى أعباء كل تلك الأشياء الصغيرة ؟ ولقد اشتريت لك فستانا من قطعتين هذا الشهر ، وأدفع لك عشرين فرنكا فى اليوم ، بالإضافة إلى الإيجار ، فيما - أنت - تتناولين القهوة مع أصدقائك . أنا لا أفعل سوى الخير ، وأنت تقابليننى دائما بالشر ، ولكنها رغم ذلك ظلت لا

تعمل . وكانت دائما تقول : إنها لا تستطيع العمل ، ومن هنا لا حظت أن فى ذلك الأمر نوعا من الخداع .

ثم حكى لى أنه كان قد وجد فى حقيبة يدها واحدة من أوراق اليانصيب، وأنها لم تستطع أن تصف له من أين جاءت بالنقود التى ابتاعتها بها . بعد ذلك ، وجد لديها « دليلا » على أنها قد اشترت سوارين من محل «حبل الوداد » . ولم يكن - هو - يعلم شيئا عن هذين السوارين . ثم قال : «وعليه فقد رايت أنها تخدعنى ، فهجرتها، ولكننى ضربتها قبل ذلك وقلت لها حقيقتها ، وأنها ليست إلا داعرة ، وقلت لها أيضا ياسيد ميرسو : « إن هناك العديد والعديد ممن يحسدونك على ما أقدمه إليك ،وسوف تعلمين - فيما بعد - فى أى نعيم كنت ترفلين» .

وقال : إنه فى هذه المرة كان قد ضربها ضربا مبرحا ، أما قبل ذلك فلم يكن يضربها ، وأضاف : « لقد كنت أضربها برفق ، فكانت تبكى قليلا ، فكنت بعد ذلك أرفه عنها ، أما فى تلك المرة ، فقد كان الأمر جادا» .

وبعد ذلك شرح لى أنه بحاجة إلى نصيحتى ، ثم توقف ليصلح ويضبط المصباح ، وكنت أسمع له ،فيما كنت قد شربت ما يقارب لترا من النبيذ ، فكان رأسى ساخنا ، وكنت أدخن سجائره ؛ لأن سجائرى كانت قد نفدت، وكانت ترامات آخر الليل تأتى ومعها بعض الضوضاء البعيدة ، فيما راح ريمون يتابع : إن ما يزعجه أنه لا يزال يشعر نحوها بالحنين ، ولكنه فى نفس الوقت يريد أن يعاقبها ، وعليه فإنه يريد أن يطلب إلىَّ شيئا ، وقبل ذلك فإنه يريد أن يعرف رايى حول ذلك الموضوع ، فقلت : إنه ليس لى راى، فسألنى إن كنت أعتقد أن هناك شيئا من الخداع ، فقلت : يبدو

ذلك ، ثم سألنى إن كنت أعتقد أنه يجب أن يعاقبها ، وماذا سأفعل لو أننى كنت مكانه ؟ فقلت : إننى متفهم لرغبته فى معاقبتها ، ولا أدرى ماكنت سأفعله إن كنت فى مكانه ، ثم شربت بعضا من النبيذ ، وأشعل هو سيجارة وراح يكشف لى عن خطته : إنه يريد أن يكتب لها خطابا مخادعا ومؤثرا ؛ ليجعلها تندم ، وعندما تعود إليه باكية سوف ينام معها ، ثم يبصق فى وجهها ويطردها شر طردة، فقلت : إن ذلك فى الواقع عقابُ كافٍ ، ولكن ريمون قال : إنه غير قادر على كتابة ذلك الخطاب ، وعليه فقد فكر فى أننى يمكن أن أساعده . وعندما لم أقل شيئا سألنى إن كان يضايقنى أن أكتبه فى التو واللحظة ، فقلت : لا .

فجرع كوبا من النبيذ ، ونهض واقفا ، ثم أزاح الأطباق وما تبقى من السجق جانبا ، ومسح غطاء الطاولة الجلدى فى عناية ، ثم أخرج ورقة مربعات ، ومظروفًا أصفر اللون ، وريشة من الخشب الأحمر ، ودواية مربعة بها بعض الحبر البنفسجى . وعندما ذكر لى اسم تلك المرأة عرفت أنها من أصل عربى ، فكتبت الخطاب محاولا إرضاء ريمون ؛ لأنه لم يكن لدى سبب يمنعنى من ألاّ أرضيه ، ثم قرأت الخطاب بصوت عال، فراح ينصت وهو يدخن ويهز رأسه ، ثم طلب أن أعيد قراءته . لقد كان فى غاية السعادة ، حتى إنه قال لى : « لقد كنت متأكدا من أنك قد خبرت الحياة » ثم أضاف : « أنت صديق حقيقى ، اعتبارا من الآن » ثم كررها ثانية . فقلت : «نعم » فقد كان ذلك يتساوى لدى فيما كان هو سعيدا بذلك ، ثم أغلق الخطاب ، وشربنا ماتبقى من النبيذ ، ثم جلسنا بعض الوقت ندخن فى صمت .

فى الخارج ، كان الجو هادئا ، إلا من صوت سيارة تمر من وقت لآخر ،

فقلت : « إن الوقت قد تأخر » . وكان ذلك هو رأى ريمون أيضا ، الذى قال إن الوقت قد مر سريعا . وقد كان ذلك صحيحا إلى حد ما . كنت أشعر بالنوم وكنت متعبا ، حتى إن ريمون قد قال : إن على أن أتمالك نفسى . وفى البداية لم أكن قد فهمت مايعنيه ، فقال : إنه قد علم بموت أمى ، وإن ذلك كان لابد أن يحدث فى يوم من الأيام . وكان ذلك أيضا هو ما أعتقده .

نهضت واقفا ، وشد ريمون بحرارة على يدى وهو يقول : إن الرجال دائما مايتفهمون بعضهم البعض . خرجت وأغلقت الباب خلفى ، ووقفت فى الظلام . كان البيت هادئا . ومن بئر السلم كانت تأتى ريح مظلمة رطبة، ولم أكن اسمع سوى طنين ضربات الدم فى أذنى . ومن حجرة سالامانو العجوز ، سمعت الكلب يتوجع فى ضعف .

عملت بجد طوال الأسبوع ، وقد أخبرنى ريمون أنه أرسل الخطاب . وذهبت إلى السينما مرتين برفقة إيمانويل . وأمس كان السبت وقد حضرت مارى ، كما كنا قد اتفقنا ، كانت رائعة فى ثوبها ذى الخطوط الحمراء والبيضاء وصندلها الجلدى . كانت الشمس قد لفحت وجهها فصار كالزهرة . أخذنا الأتوبيس وذهبنا إلى أحد الشواطىء الواقعة بين الصخور على بعد عدة كيلو مترات من الجزائر العاصمة . ولم تكن شمس الساعة الرابعة قوية ، ولكن ماء البحر كان دافئا ، وكانت هناك بعض الأمواج الطويلة الهادئة .

ثم علمتنى مارى إحدى اللعبات : أثناء السباحة كان يجب أن نملأ أفواهنا بالزبد الذى كان يوجد فوق الأمواج ، وبعد ذلك - ونحن نسبح

على ظهورنا – ننفخ الزبد لأعلى كالنافورة ، بعد فترة كان حلقى يؤلمنى بفعل الملح فتوقفت ، ثم لحقت بى مارى وقبلتنى ورحنا نتدحرج تحت الأمواج .

وعندما ارتدينا ملابسنا على الشاطىء ، نظرت إلىَّ مارى بعينيها اللامعتين ، فقبلتها وسرنا متلاصقين حتى ركبنا الأتوبيس وعدنا إلى البيت . كنت قد تركت النافذة مفتوحة ، فكان شيئا رائعا أن نشعر بليل الصيف الدافىء يتدفق فوق أجسادنا البرونزية اللون .

بقيت مارى معى حتى الصباح ، وقلت لها : إننا سنتناول طعام الغداء معا . ونزلت لأشترى بعضا من اللحم . عند صعودى سمعت صوت امرأة فى حجرة ريمون . وبعد قليل سمعنا سالامانو العجوز يعنف كلبه ، ثم صوت أقدامهما فوق السلالم الخشبية ثم : « ياقذر ، ياجيفة » ، لقد خرجا إلى الشارع . قصصت على مارى قصتهما فراحت تضحك . كانت تلبس واحدة من بيجاماتى ، وكانت قد شمرت الأكمام ، فكانت جميلة ورائعة . بعد فترة سألتنى إن كنت أحبها ، فقلت : إن ذلك لايعنى شيئا ، ولكن يبدو أننى لا أحبها، فظهر الحزن على وجهها . وعندما كنا نعد طعام الغداء، سمعنا أصوات مشاحنات ومشادات عند ريمون .

فى البداية كان هناك صوت امرأة ، ثم صوت ريمون الذى كان يقول : «لقد خدعتينى ، لقد خدعتينى » ثم ضوضاء مكتومة ، ثم راحت المرأة تصرخ وتصرخ حتى إن الطابق قد امتلأ بالناس فى لحظات ، فخرجنا نحن أيضا ، مارى وأنا . كانت المرأة لاتزال تصرخ وريمون لايزال يضرب . فقالت مارى : إن ذلك شىء رهيب ، فلم أقل شيئا ، فسألتنى أن أذهب لأستدعى رجل شرطة ، فقلت : إننى لا أحب رجال الشرطة . وبالرغم من

ذلك فقد قدم واحد منهم - بعد لحظات - برفقة أحد ساكنى الدور الثانى . طرق رجل الشرطة الباب ، ولم نعد نسمع شيئا بالداخل ، فأعاد الطرق ثانية، ففتح ريمون فى لطف مصطنع وكانت بين شفتيه سيجارة ، فى حين كانت المرأة تبكى . أسرعت المرأة ناحية الباب وقالت للشرطى : إن ريمون قد ضربها ، فسأله الشرطى فى حدة : «اسمك» ولما أجابه ريمون قال الشرطى : « انزع سيجارتك من فمك عندما تكلمنى » ، وعندما تردد ريمون ، صفعه الشرطى صفعة قوية فوق وجهه ، فسقطت السيجارة على بعد عدة أمتار . تغير وجه ريمون، ولكنه لم يقل شيئا فى الحال ، وبعدها سأل إن كان بإمكانه أن يستعيد سيجارته من على الأرض ، فقال له الشرطى : إنه يستطيع أن يفعل « ولكن عليك أن تعرف - فى المرة القادمة - أن رجل الشرطة ليس كأحد المهرجين » . فى تلك الأثناء كانت الفتاه تبكى وتردد : «لقد ضربنى ذلك القواد» فقال ريمون للشرطى : « وهل من حقها - ياسيدى الشرطى - أن تصفنى بأننى قواد ؟ » فأمره الشرطى بأن « يغلق فمه». فاستدار ريمون ناحية الفتاة وقال : « سوف ترين ياصغيرتى ، لسوف ترين » . فأمره الشرطى ثانية أن يغلق فمه ، وطلب إلى الفتاة أن ترحل ، وعليه هو أن ينتظر فى حجرته حتى يتم استدعاؤه إلى قسم الشرطة ، ثم أضاف أن على ريمون أن يخجل من كونه سكران إلى هذه الدرجة التى تجعله يرتعد ، فشرح ريمون ذلك قائلا : « أنا لست سكران ياسيدى الشرطى ، أنا فقط أقف -هاهنا - أمامك وأرتعد رغما عنى ، » ثم رحل الناس ورحل الشرطى وأغلق ريمون بابه . كنا قد انتهينا - مارى وأنا - من إعداد طعام الغداء ، ولكنها لم تكن جائعة ، فأكلته - أنا - كله تقريبا ، ثم انصرفت - هى - فى الواحدة ، ونمت - أنا - قليلا .


الجزء الثاني

2

حوالى الساعة الثالثة ، سمعت طرقا بالباب ، ثم دخل ريمون. بقيت مستلقيا فيها جلس - هو - على حافة السرير. ظل ريمون جالسا فى صمت، فسألته عما آل إليه موضوعه ، فقال : إن كل شىء قد تم كما كان مخططا له ، ولكن المرأة قد صفعته، وعندها لم يجد بدا من ضربها ، وبالنسبة لبقية الموضوع فقد رأيت بنفسى كل شىء ، فقلت : يبدو لى الآن أن الفتاة قد عوقبت ، وأنك يجب أن تكون سعيداً ، وكان ذلك هو رأيه أيضا ، وأنه مهما فعل رجل الشرطة فإن ذلك لن يغير شيئا من الضرب الذى نالته ، وأضاف أنه يعرف جيدا رجال الشرطة ، ويعرف كيف يتعامل معهم، ثم سألني إن كنت قد انتظرت منه أن يرد على الصفعة التى وجهها له رجل الشرطة، فأجبته بأننى لم أنتظر شيئا على الإطلاق ، وأننى بالإضافة إلى ذلك لا أحب الشرطة ، فبدا عليه السرور ، ثم سألنى إن كنت أرغب فى الخروج ، فنهضت وبدأت أستحم ، وعندها قال : إنه يريدنى أن أكون شاهده ، لم يكن ذلك الأمر يضايقنى ، ولكنى لم أكن أعرف ما الذى يجب أن أقوله ، ولكن طبقا لرواية ريمون فإنه كان يكفى بأن أقول : إن الفتاة قد خدعته ، فوافقت أن أكون شاهده .

خرجنا معًا ، وقدم لى ريمون مشروبا ، ثم لعبنا شوطا من البلياردو

فخسرته ، وبعدها عرض ريمون أن نذهب إلى الماخورة ، ولكننى رفضت؛ لأننى لا أحب ذلك ،ثم عدنا ببطء إلى البيت ، وطوال الطريق كان ريمون يردد : كم هو سعيد لنجاحه فى معاقبة عشيقته .

من بعيد ، لمحت سالا مانو العجوز على عتبة الباب ، وكان يبدو مضطربا . وعندما اقتربنا لاحظت أن كلبه ليس معه . وكان ينظر من حوله إلى جميع الجهات ، محاولا أن يخترق الظلام ، ومتمتما بكلمات غير مفهومة ، ثم يعود للنظر على طول الشارع بعينيه الصغيرتين الحمراوين ، فسأله ريمون عما به ، ولكنه لم يجب وراح يتمتم : « قذر . . جيفة » وهو مستمر فى هياجه، فسألته بدورى عن كلبه ،فقال : إنه قد رحل ، وفجأة انفجر فى الحديث قائلا : « لقد صحبته - كالعادة - للنزهة فى حقل الملاهى ، وكان هناك جمع كبير من الناس حول البيوت المتنقلة فوقفت أنظر، وعندما أردت الرحيل ، كان قد اختفى . منذ مدة طويلة وأنا أريد أن أشترى له طوقا أقل اتساعا، ولكننى لم أكن أعتقد أبدا أن ذلك القذر يمكن أن يرحل بمثل تلك السهولة . »

راح ريمون يشرح له أن الكلب ربما يكون قد ضل طريقه ، ولكنه لابد أن يعود ، وراح يعدد له أمثلة لكلاب قطعت عشرات الكيلو مترات للعثور على أصحابها ، وبالرغم من ذلك ظل العجوز على اضطرابه وهياجه وهو يقول : « ولكنهم سيأخذونه ، لو أن أحدًا عثر عليه واستضافه فسيكون ذلك من حسن الحظ ، ولكن الناس ينفرون منه لحراشيفه ؛ ولذلك فإن رجال الشرطة سيأخذونه بالتأكيد . » فقلت له : إنه إذا كان الحال كذلك فعليه أن يذهب إلى مستودع الكلاب الضالة ، وسوف يعيدونه له مقابل مبلغ من المال ، فسألنى إن كان ذلك المبلغ كبيرا ، ولم أكن أعرف

بالتحديد، فراح يصيح فى غضب : « أدفع مالاً فى هذه الجيفة ، لا ، فليبق هناك حتى يموت ! » فضحك ريمون ودخل إلى البيت ورحت أتبعه حتى افترقنا كل إلى شقته .

بعد فترة ، سمعت وقع أقدام العجوز ، ثم طرقا على الباب ، وعندما فتحت قال لى : « اعذرنى ياسيد ميرسو ، أرجو المعذرة . » فدعوته للدخول ولكنه رفض . كان ينظر إلى قدميه وإلى يديه المرتعشتين ، ودون أن ينظر إلى راح يسألنى : « إنهم لن يأخذوه ، قل لى سيد ميرسو ، إنهم سوف يعيدونه إلى ، ما الذى سأفعله بدونه ؟ » فقلت له : إنهم يحتفظون بالكلاب لمدة ثلاثة أيام فى انتظار من يسأل عنها ، وبعد ذلك فهم يفعلون بها ما يجدونه مناسبا ، فنظر إلى فى صمت ثم قال : « ليلة طيبة » ثم أغلق بابه خلفه ، ثم سمعته يروح ويجيء خلف الباب .

ثم سمعت ضوضاء عجيبة فهمت منها أنه يبكى . ولا أعرف لماذا فكرت فى أمى فى تلك اللحظة ، ولكن كان على ان أستيقظ مبكرا فى اليوم التالى ، فدخلت لأنام دون طعام ؛ لأننى لم أكن جائعًا .

اتصل بى ريمون تليفونيا فى المكتب وقال : إن أحد أصدقائه (وكان قد حدثه عنى) يدعونى لقضاء يوم الأحد فى كابينة له بالقرب من الجزائر العاصمة ، فقلت : إننى كنت أتمنى ذلك لولا أننى قد اتفقت بالفعل مع إحدى الصديقات لقضاء ذلك اليوم معها ، فقال ريمون على الفور : إنه يدعوها أيضا ، وإن زوجة صديقه ستكون سعيدة بذلك ؛ لأنها لن تكون وحيدة وسط مجموعة من الرجال .

كنت أريد أن أنهى الاتصال بعد ذلك مباشرة ؛ لأن رئيسى لايحب كثيراً

أن يكلمنا أحد فى شئون لاتهم العمل ، ولكن ريمون أضاف أنه كان يستطيع أن ينتظر بدعوته هذه حتى المساء ، ولكنه أراد أن يحذرنى من شىء آخر : لقد كان متبوعا طوال اليوم بواسطة مجموعة من العرب ، ومن بينهم شقيق عشيقته السابقة . « فإذا رأيته بالقرب من البيت عند عودتك هذا المساء ، فعليك أن تحذرنى . » فقلت له : إننى سأفعل .

بعد ذلك استدعانى رئيس العمل ، فتضايقت ؛ لأننى اعتقدت أنه سيطلب إلىَّ إقلال الاتصالات التليفونية وزيادة العمل ، ولكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق ؛ فقد قال : إنه سيحدثنى عن مشروع لم يتحدد بعد ، وقد كان يريد أن يعرف رأيى حول ذلك . لقد كانت لديه النية أن يفتتح مكتبا جديدا فى باريس ؛ ليتعامل من هناك مباشرة مع الشركات الكبرى ، وكان يريد أن يعرف ما إذا كنت مستعدا للعمل هناك ، ثم أضاف : إن ذلك سيسمح لى بالعيش فى باريس ، وأيضا بالسفر والرحلات وقال :

« وأنت لاتزال فى مقتبل العمر ، وأعتقد أن هذا النوع من الحياة لابد أن يرضيك » ، فقلت : نعم وإن كانت كل تلك الأمور تتساوى لدى ، وعند ذلك سألنى إن لم يكن يهمنى أن أغير مسار حياتى ، فقلت : إننا لا نستطيع - مهما فعلنا - أن نغير من مسار حياتنا ، وعلى أى حال فإن كل شىء فى النهاية يتساوى لدى ، وإن كانت حياتى هنا ليست سيئة على الإطلاق، فبدا عليه الغضب ، وقال إن إجاباتى لا تعنى شيئا ، وإنه ليست لدى أية طموحات ، وإن ذلك يجلب الخراب لأية مشروعات . وعندها عدت للعمل . لقد كنت أرغب فى ألا أضايقه ، ولكننى لم أكن أرى سببا واحدا يجعلنى أغير وأبدل حياتى . فأنا - فى الواقع - لست تعيسا. عندما كنت طالبا كانت لدى طموحات كثيرة من ذلك النوع ،

ولكن عندما كان لزاما على أن أهجر دراستى ، فهمت على الفور أن كل ذلك ليس له أى أهمية حقيقية .

فى المساء ، جاءتِ مارى إلى المكتب لتصحبنى عند الخروج ، وسألتنى إن كنت أريد أن أتزوجها ، فقلت : إن ذلك يتساوى لدى ، وإننا نستطيع أن نتزوج إذا كانت تريد ذلك ، ولكنها أرادت أن تعرف إن كنت أحبها . فأجبتها بما كنت قد قلته من قبل ، بأن ذلك لايعنى شيئا ، ولكننى أعتقد بأننى لاأحبها ، فسألتنى : « ولماذا تتزوجنى إذن ؟ » فقلت : لأن ذلك ليس له أية أهمية ، وإنها إن كانت تريد الزواج ، فأنا مستعد ، فقالت : إن الزواج شىء خطير وهام ، فقلت: « لا » فراحت تنظر إلى فى صمت ، ثم تكلمت. كانت تريد أن تعرف - بكل بساطة - إذا ماكنت سأقبل نفس الاقتراح من امراة أخرى تربطنى بها نفس العلاقة ، فقلت : « بالطبع . » فسألتنى إن كنت أعتقد أنها تحبنى ، فقلت : إننى لا أعرف شيئا بخصوص ذلك الأمر. بعد لحظة صمت أخرى وهى تحدث نفسها أننى غريب الأطوار ، وأنها ربما كانت تحبنى الآن بسبب ذلك ، ولكنها قد تنفر يوما ما لنفس السبب . ونظرا لأننى لم أقل شيئا حيث لم يكن ما أستطيع أن أضيفه، فقد أخذتنى من ذراعى وهى تبتسم وتقول : إنها تريد أن تتزوجنى، فقلت : سوف نفعل ذلك متى أردت ، ثم حدثتها عن مقترحات رئيسى ، فقالت : إنها تود أن تعرف باريس ، فقلت لها : إننى قد عشت فيها لفترة من حياتى ، فسألتنى عنها ، وقلت : « إنها قذرة ، وهناك الكثير من الحمام والأرصفة السوداء ، كما أن الناس لونهم أبيض باهت . »

رحنا نمشى ، وعبرنا المدينة بشوارعها الكبيرة فى صمت . كنت أريدها أن تبقى معى ، وقلت : إننا يمكن أن نتناول طعام العشاء معًا عند

سيليست ، فقالت : إنها كانت تود ذلك لولا أن لديها شيئا تريد أن تفعله . كنا قد اقتربنا من البيت فقلت لها : « إلى اللقاء » فنظرت إلى وقالت : « ألا تريد أن تعرف ما سأفعله ؟ » فقلت : إننى أريد ذلك ، ولكننى لم أفكر فى أن أسألها ، فبدت عاتبة علي ، ثم ضحكت أمام حيرتى ، ثم دنت منى وقبلتنى .

رحت أتناول العشاء عند سيليست ، كنت بالفعل قد بدأت الطعام عندما دخلت امرأة عجيبة ، سألتنى أن كانت تستطيع أن تجلس على نفس الطاولة ، بالطبع تستطيعين . كانت حركاتها سريعة وعيناها لامعتين ووجهها صغيرا ، خلعت المرأة معطفها بسرعة ، وجلست ،ثم ألقت نظرة محمومة على قائمة الطعام ،ثم نادت سيليست وطلبت فورا ودفعة واحدة كل ماتريده بطريقه محددة وسريعة . وبانتظار الطعام ، فتحت حقيبة اليد وأخرجت ورقة وقلما ، وجمعت الحساب مقدما ، ثم أخرجت من حافظة صغيرة - مملوءة بالعملات الفضية - المبلغ المطلوب بالضبط، ووضعته أمامها . فى تلك اللحظة ، أحضروا لها الطبق الأول فالتهمته على الفور . وفى انتظار الطبق الثانى ، أخرجت من حقيبة اليد قلما ومجلة تعنى بمواعيد البرامج الإذاعية الأسبوعية . وبكثير من العناية راحت تضع علامات أمام كل البرامج تقريبا واحدا بعد الآخر .

وحيث إن المجلة يزيد عدد صفحاتها على الدستة ، فقد راحت تتابع ذلك العمل الدقيق طوال الطعام . وعندما انتهيت من طعامى كانت لاتزال تضع علاماتها بنفس الاهتمام ،ثم نهضت ، وارتدت معطفها فى حركات محددة كالإنسان الآلى ،ثم رحلت . ونظرا لأنه لم يكن لدى ماأفعله ، فقد خرجت أنا أيضا ورحت أتبعها . . . على حَافة الرصيف ، راحت المرأة تسير

فى سرعة وثقة عجيبتين دون أن تحيد عن طريقها أو تنظر خلفها ، ثم انتهى بى الأمر إلى أن فقدت أثرها ، فعدت أدراجى وأنا أفكرفى تلك المرأة الغريبة الأطوار ، ولكننى مالبثت أن نسيتها تماما .

وجدت العجوز سالامانو على عتبة الباب ، فدعوته للدخول ، وأخبرنى أن كلبه قد ضاع ؛ لأنه لم يجد له أثرًا فى مستودع الكلاب . وقد قال له العاملون : إنه ربما يكون قد دهمته سيارة . وقد سألهم عما إذا كان من الممكن معرفة ذلك عن طريق أقسام البوليس ، فقالوا : إن أقسام البوليس لاتحتفظ بسجلات لمثل تلك الأشياء ؛ لأنها تقع كل يوم ، فقلت : إنه يستطيع أن يتبنى كلبا آخر ، ولكنه كان محقا عندما قال : إنه قد تعود على ذلك الكلب بالذات .

كنت أجلس القرفصاء فوق سريرى ، وكان سالامانو جالسا فى مواجهتى أمام الطاولة ويداه فوق ركبته ، وكان يتمتم ببعض الجمل الناقصة من تحت شاربه المائل للاصفرار . لقد كان يضايقنى بعض الشىء ، ولكن لم يكن لدى ماأفعله ولم أكن أريد النوم . وأردت أن أقول شيئا ، فسألته عن كلبه ، فقال : إنه كان قد تبناه على إثر موت زوجته ، وقال : إنه فى صباه كان قد حاول أن يصبح ممثلا مسرحيا ، وإنه فعل ذلك مع وحدته أثناء الخدمة العسكرية ، وإنه فى نهاية الأمر قد التحق بالسكك الحديدية ، وإنه غير نادم على ذلك ؛ لأنه يتقاضى الآن معاشا صغيرا من جراء ذلك ، وإنه لم يكن سعيدا مع زوجته وإن كان قد استطاع أن يتعايش معها . وعندما ماتت أحس أنه وحيد ، فطلب إلى أحد أصدقائه كلبا ، فأعطاه ذلك الكلب ، وكان فى ذلك الوقت صغيرا جدًّا ، حتى إنه كان يطعمه فى بادىء الأمر بواسطة البزازة ، ولكن نظرا لأن حياة الكلاب أقصر من حياة البشر ، فقد

انتهى بهما الأمر إلى الشيخوخة معا . « لقد كانت له صفات سيئة ، ومن وقت لآخر كنا نتشاجر ، ولكنه كان - رغم ذلك - كلبا جيدًا » . فقلت : ويبدو أنه كان من سلالة ممتازة ، فبدا على سالا مانو السرور ، وأضاف : «رغم أنك لم تره قبل مرضه ، لقد كان شعره من أجمل مايكون الشعر ! » ومنذ أن أصابه ذلك المرض الجلدى فإن سالامانو كان يدلكه يوميا فى المساء وفى الصباح، ولكن ذلك لم يُجْدِ نفعا ؛ لأن مرضه الحقيقى - كما يقول - كان هو الشيخوخة ، والشيخوخة ليس لها من علاج .

عند ذلك الحد تثاءبت ، فقال العجوز : إنه سيرحل ، فقلت : إنه يمكنه أن يجلس ، وإننى أشعر بالضيق لما أصاب كلبه ، فشكرنى ، ثم قال : إن أمى أيضا كانت تحب كلبه كثيرا . وقد لاحظت أنه عندما تحدث عنها كان قد قال : « أمك المسكينة » ثم ألمح إلى أننى لابد أن أكون تعيسا جدا منذ وفاتها ، فلم أرد ، ثم قال - وهو يبدو عليه الحرج - : إنه يعرف أن الناس فى الحارة يسيئون تقديرى ؛ لأننى كنت قد وضعت أمى فى دار المسنين ، ولكنه - هو - يعرف أننى كنت أحبها كثيرا ، فأجبته : ولا أدرى لماذا فعلت ، إننى أجهل تماما حتى تلك اللحظة أنهم يسيئون تقديرى نتيجة لذلك ، وإن دار المسنين تبدو لى شيئا عاديا ، خاصة أننى لاأملك مالاً يمكننى من القيام على شئون أمى ، ثم قلت : « وبالإضافة إلى ذلك فمنذ وقت طويل مضى لم يعد لدى أمى شىء تقوله ، ثم إنها كانت تعانى من الوحدة . » فقال : نعم ، أما فى دار المسنين فإننا على الأقل نستطيع أن نجد بعض الرفقاء . » ثم استأذن ؛ لأنه كان يريد أن ينام . لقد بدأت حياته تتغير الآن ، وهو لايعرف تماما ما الذى سيفعله . ولأول مرة منذ أن عرفته ، مد يده ليصافحنى فى سرعة ، وعندها شعرت بالقشور التى تغطى

جلده ، ثم ابتسم وقال قبل أن يرحل : « أرجو ألا تنبح الكلاب كثيرا تلك الليلة ؛ لأننى فى كل مرة سأعتقد أن كلبى هو الذى ينبح . »

يوم الأحد ، وجدت صعوبة بالغة فى أن أستيقظ ، حتى إننى لم أنجح فى ذلك إلابعد أن نادتنى مارى وهزتنى عدة مرات ، ولم ننتظر لتناول الطعام ؛ لأننا كنا نريد الاستحمام مبكرين، وعليه فقد كنت أحس بالجوع وببعض الآلام فى الرأس ، حتى إن السيجارة التى أشعلتها كان لها طَعْمٌ مُرٌّ ، كما أن مارى راحت تتهكم على ؛ لأن وجهى - كما تقول - كان يشبه وجوه من يمشون فى جنازة ، فيما كانت - هى - قد ارتدت فستانا من القماش الأبيض وتركت شعرها ينسدل على كتفيها ، وقد قلت لها : إنها جميلة ! فراحت تضحك فى سرور .

أثناء هبوطنا ، طرقنا باب ريمون فقال : إنه سيهبط . وفى الشارع ، كانت الشمس تسطع بقوة وتضرب الوجوه ، وربما كان ذلك لأننى كنت متعبا أو لأننا لم نكن قد فتحنا النوافذ . راحت مارى تقفز فى سرور وتقول : إن الجو جميل ، فشعرت بشىء من التحسن وبشىء من الجوع ، وقد قلت لها ذلك ، فأرتنى حقيبتها الجلدية ، ولم يكن بها سوى المنشفة ولباسَىْ الاستحمام ؛ ولذا فلم يكن أمامى سوى الانتظار ، ثم سمعنا ريمون يغلق بابه . كان يرتدى بنطلونا أزرق وقميصا أبيض قصير الأكمام ، وكذلك قبعة من القش أثارت ضحك مارى . كما أن ذراعيه كانتا بيضاوين تحت الشعر الأسود ، الأمر الذى أثار اشمئزازى بعض الشىء . كان ريمون يصفر ، وكان يبدو مسرورًا وقد قال لى : « أهلا ياصاح » وقال لمارى « أهلا يامودموازيل » .

بالأمس كنا قد ذهبنا إلى قسم البوليس وأدليت بشهادتى ، وقلت : إن الفتاة قد « خدعت » ريمون . وقد أفرجوا عنه بعد أن حذروه ، تحدثنا قليلا مع ريمون أمام الباب ، ثم قررنا أن نأخذ الأتوبيس . لم يكن الشاطىء بعيدا ، ولكننا أردنا أن نصل إلى هناك بسرعة ؛ فقد كان ريمون يعتقد أن صديقه سيكون مسرورًا إذا نحن وصلنا مبكرين . وما إن بدأنا الرحيل ، حتى فأجأنى ريمون بإشارة طالباً منى أن أنظر إلى الناحية المقابلة . فنظرت، ورأيت مجموعة من العرب أمام حانوت التبغ . كانوا ينظرون إلينا فى صمت ، كما لوكنا قطعًا من الحجارة أو الأشجار الميتة . وقال ريمون : إن الشخص الثانى من اليسار هو غريمه ، ثم بدا عليه الانشغال وقال : إن الخلاف بينهما يعتبر الآن شيئا منتهيا . ولم تكن مارى تفهم مايدور من حولها فسألتنا عن ذلك ، فقلت لها : إن هؤلاء العرب يضمرون شرًا لريمون . فأرادت أن نرحل فى التو واللحظة ، فنهض ريمون وقال وهو يضحك : إذن يجب أن نرحل بسرعة .

توجهنا إلى ناجية موقف الأتوبيس ، وقال لى ريمون : إن العرب لا يتعقبوننا ، فنظرت خلفى ، كانوا فى نفس مكانهم ينظرون إلي الموقع الذى كنا قد غادرناه دون أدنى اهتمام . ركبنا الأتوبيس . ولم يتوقف ريمون - الذى بدا عليه الارتياح - عن مداعبة مارى ، رغم أنها لم تكن تجيبه إلا بضحكة قصيرة من وقت لآخر .

نزلنا من الأتوبيس فى إحدى الضواحى ، ولم يكن الشاطىء بعيدًا . ولكن كان علينا أن نعبر هضبة صغيرة تطل على البحر وتهبط نحو الشاطىء. كانت تلك الهضبة مغطاة بالحجارة التى يميل لونها إلى الاصفرار، وبأعشاب السيراسى البيضاء تحت زرقة السماء الملتهبة ، كانت

ماری تمرح وتضرب زهور الأعشاب بحقيبتها الجلدية فيما كنا نمشی بين صفين من الفيلات الصغيرة المحاطة بحواجز خضراء أو بيضاء . بعض تلك الفيلات كانت تختبیء تحت الأشجار ، والبعض الآخر تقف عارية وسط الصخور . وقبل أن نصل إلى حافة الهضبة كنا نرى مياه البحر الساكنة الرائعة وهی تحتضن الشاطیء الهادی الضخم .

ثم سمعنا ضوضاء خفيفة تصل إلينا عبر الهواء الراكد ، ورأينا – عن بعد – قاربا صغيراً يتقدم ببطء فوق صفحة المياه الناصعة . وكانت ماری قد جمعت بعض زهور السوسن من بين الصخور ، وبينما كنا فوق الهضبة الهابطة تجاه البحر رأينا أن هناك بالفعل بعض المستحمين .

كان صديق ريمون يسكن عشًا صغيرًا من الخشب فی طرف الشاطیء . وكان ذلك العش يستند من الخلف إلى الصخور ، فيما كانت المياه تداعب الأعمده الخشبية التی كانت تحمله من الأمام . قدمنا ريمون إلى صديقه ، وكان يسمی ماسو ، كان طويل القامة وضخم المنكبين ، وكانت زوجته صغيرة وممتلئة وطيبة ، وتتحدث بلكنة باريسية . وقد قال لنا الرجل أن نعتبر أنفسنا فی بيوتنا ، وأن نتصرف فی حرية ، وأنه سوف يقلی لنا بعض السمك الذی كان قد اصطاده فی الصباح . وقد قلت له : إننی أجد بيته جميلا ، فقال : إنه يمضی فيه أيام السبت والأحد وكل أيام الإجازات ، وأضاف : «أنه وزوجته يحبون ذلك . » فی تلك الأثناء ، كانت زوجته تضحك مع ماری . وللمرة الأولى – تقريبا – فكرت فی أننی قد أتزوج .

كان ماسو يريد الاستحمام ، ولكن زوجته وريمون لا يريدان ؛ ولذا فقد ذهبنا نحن الثلاثة فقط ، وما إن وصلنا حتی ألقت ماری بنفسها داخل المياه، فی حين انتظرنا – ماسو وأنا – لبعض الوقت . كان ماسو يتكلم

ببطء، وقد لاحظت أنه عادة مايكمل كل ماينطق به بعبارة « وسأقول بالإضافة إلى ذلك » ، حتى ولو كان ماسيقوله لايضيف - فى الواقع - شيئا إلى ماقد قاله بالفعل . وعن مارى فقد أسر لى : « إنها مدهشة - وسأقول بالإضافة إلى ذلك - رائعة . » ثم ما لبثت أن نسيت تلك العادة ؛ لانني كنت مشغولا بالاستمتاع بالشمس . وكانت الرمال قد بدات تسخن تحت الأقدام ، فأجلت رغبتى فى نزول المياه للاستمتاع بذلك الدفء ، ولكننى انتهيت بعد فترة بأن قلت لما سو : « هيا بنا » ثم ألقيت بنفسى فى المياه ، فيما راح هو يتقدم ببطء ثم ألقى بنفسه عندما غطته المياه . وقد كان عومه بطيئا وسيئا ، فتركته كى ألحق بمارى . كانت المياه باردة فكنت مسرورا لمجرد العوم. ورحنا نسبح - مارى وأنا - بعيدًا فى توافق وانسجام .

فى عرض البحر ، استلقينا على ظهورنا ، وفوق وجهى راحت الشمس تزيح طبقة الماء التى كانت تسيل إلى فمى ، ثم رأينا ماسو وهو يتجه إلى الشاطىء ليرتمى فى الشمس ، وكان يبدو ضخما من بعيد ، ثم أرادت مارى أن نسبح معآ ، فجعلت نفسى خلفها حتى أتعلق بوسطها ، وراحت هى تتقدم بضربات الذراعين، فيما كنت أساعدها بقدمى ، فى الوقت الذى راحت ضوضاء المياه المضروبة تتبعنا عبر ضوء الصباح ، حتى أحسست بالتعب . عندها تركت مارى ورحت أسبح فى طريق العودة بضربات منتظمة وتنفس عميق . وعلى الشاطىء ارتميت إلى جوار ماسو ، ووضعت وجهى على الرمال وأنا أقول : « إن المياه جميلة » ! ، وكان له أيضا نفس الرأى . بعد قليل ، جاءت مارى فاستدرت أنظر إليها وهى تتقدم ملفوفة بالمياه المالحة وتمسك شعرها إلى الوراء ، ثم ألقت بنفسها إلى جوراى

وجسدها يلاصق جسدى ، حتى إننى من جراء حرارة جسدها وحرارة الشمس شعرت بميل إلى النعاس .

وبعد قليل ، هزتنى مارى قائلة : إن ماسو قد صعد إلى بيته ، وإنه يجب أن نلحق به لتناول الغداء ، فقمت على الفور ؛ لأننى كنت جائعا ، ولكن مارى قالت تنبهنى : إننى لم أقبلها منذ الصباح ،وقد كان ذلك حقيقيا ، كما أننى كنت أرغب فى ذلك ، ولكن يبدو أننى قد نسيت ، فقالت : «هيا بنا داخل المياه » ، فعدونا معا إلى أن ارتمينا معًا داخل الأمواج من الشاطىء .

عندما رجعنا إلى العش كان ماسو ينادينا ، فقلت : إننى جائع بالفعل ، فيما قال هو لزوجته : إن صفاتى قد أعجبته . كان الخبز جيدا ، فالتهمت نصيبى كله من السمك . وكان هناك بعد ذلك اللحم والبطاطس المحمرة . كنا نأكل دون أن نتكلم . وكان ماسو يشرب الكثير من النبيذ ، وكان يقدمه لى دون توقف . عندما جاءت القهوة ، كانت رأسى قد ثقلت قليلا ، وكنت أدخن بشراهة ، ثم رحلنا - ماسو وريمون وأنا - نتناقش فى إمكانية قضاء شهر أغسطس معا على الشاطىء ، على أن نقتسم التكاليف . وفجأة قالت مارى : « أتدرون ما الساعة الآن ؟ إنها الحادية عشرة والنصف . » وقد أدهشنا ذلك ، غير أن ماسو قال : إننا قد تناولنا الغداء مبكرا ، وإن ذلك أمر طبيعى ؛ لأن وقت الغداء هو الوقت الذى نحس فيه بالجوع . ولست أدرى لماذا كان ذلك سببا فى إضحاك مارى وإن كنت أعتقد أن ذلك مرده إلى أننى قد شربت الكثير من النبيذ ، ثم سألنى ماسو إن كنت أرغب فى النزهة معه على الشاطىء وأضاف : « زوجتى تنام دائما بعد الظهر، ولكننى لا أحب ذلك ، ولابد أن أمشى . ولقد قلت لها مرارا : إن

ذلك أفضل للصحة ، ولكنها - على أية حال - تفعل ماتريده ، وذلك هو حقها . » فقالت مارى : إنها ستبقى لتساعد السيدة ماسو فى غسيل الأوانى والأطباق ؛ فقالت الباريسية القصيرة : إن على الرجال الانصراف إلى الخارج ، وعليه فقد هبطنا نحن الثلاثة .

كانت الشمس تتوسط السماء وتتعامد على الرمال ، وكان لمعانها فوق مياه البحر لا يحتمل . لم يكن هناك أحد على الشاطىء . وفى البيوت المحيطة بالهضبة كنا نسمع ضوضاء الأطباق والملاعق ؛ فيما كنا نتنفس بصعوبة وسط الحرارة المنبعثة من الأرض والصخور ، ثم بدا ماسو وريمون يتحدثان عن بعض الناس ممن لاأعرفهم ، ففهمت أنهما يعرف أحدهما الآخر منذ أمد طويل ، وأنهما كانا يعيشان معا فى فترة من الفترات ،ثم اتجهنا ناحية المياه ورحنا نسير بمحاذاة البحر . وفى بعض الأحيان كانت موجة أطول من زميلاتها تأتى لتبل أحذيتنا القماشية ، ولم أكن أفكر فى شىء ؛ لأننى كنت شبه نائم بفعل تلك الشمس فوق رأسى العارية .

فى تلك اللحظة قال ريمون لماسو شيئا لم أسمعه جيدا ، وفى نفس اللحظة لاحظت أن هناك على الشاطىء - بعيدا عنا - اثنين من العرب يرتديان ثيابا زرقاء ويأتيان فى اتجاهنا ، فنظرت إلى ريمون الذى قال لى « إنه هو . » رحنا نواصل السير ، فيما سأل ماسو كيف استطاعا أن يتبعانا حتى هنا . ففكرت فى أنهما لابد قد لاحظا أننا قد ركبنا الأتوبيس ومعنا شنطة البحر ، ولكننى لم أقل شيئا .

راح العربيان يقتربان ببطء ، ولم نغير نحن من سرعتنا ، ثم قال ريمون : « إذا حدث شجار فعليك بالثانى ياماسو . فيما سأتكفل أنا بغريمى . وأنت ياميرسو ، إذا وصل سخص آخر فهو لك ، فقلت « حسنا » ، فيما

وضع ماسو يديه فى جيوبه . كانت حرارة الرمال قد اشتدت ، فيما كنا نتقدم بخطوات متساوية ناحية العربيين ، وراحت المسافة بيننا تتناقص تدريجيا . وعندما صرنا على قيد خطوات منهما توقفا ، فخففنا - ماسو وأنا - من سرعتنا ، فيما اتجه ريمون مباشرة نحو غريمه ، ولم أسمع بالضبط ماقاله له ، ولكن الآخر بدا وكأنه يريد أن يضربه برأسه ، فعاجله ريمون بالضرب ثم نادى ماسو فتوجه الأخير ناحية العربى الذى كان من نصيبه وضربه ضربتين بكل قوته وثقله ، فسقط فى المياه ووجهه إلى أسفل ، وفقاعات الهواء تتكون وتتكسر حول رأسه . فى ذلك الوقت كان ريمون أيضا قد ضرب الآخر حتي تشبع وجهه بالدماء ، ثم استدار ناحيتى وقال : «سوف ترى الآن ما سأفعل به . » فصرخت أحذره : « انتبه إن معه سكيناً ! » ولكن ذراع ووجه ريمون كانا بالفعل قد جرحا ، قفز ماسو إلى الأمام ، ولكن العربى الثانى كان قد نهض ووقف خلف زميله المسلح ، فلم نعد نجرؤ على الحركة ، فيما راحا بتقهقران ببطء وهما ينظران إلينا ويجبراننا على التزام السكون بفعل السكين ، وعندما صارا على مسافة مناسبة انطلقا هاربين بسرعة ، فيما كنا نقف دون حراك تحت الشمس وفيما كان ريمون يضغط ذراعه الملوثة بالدماء .

قال ماسو : إن هناك طبيباً يعيش فوق الهضبة ويأتى يوم الأحد ، فأراد ريمون أن يذهب إليه فى الحال ، ولكنه كلما تكلم كانت الدماء تخرج من فمه على هيئه فقاعات ، فأخذناه وذهبنا إلى العش بأسرع مانستطيع ، وهناك قال ريمون : إن جراحه سطحية و إن بإمكانه أن ينتقل إلى الطبيب ، وذهب مع ماسو ، وبقيت أنا لأشرح للنسوة ماحدث ، فراحت السيدة ماسو تبكى . فيما شحب وجه مارى ، وكنت أنا منزعجاً من مهمة الشرح هذه ، وانتهى الأمر إلى أن توقفت ورحت أدخن وأنظر إلى البحر .

فى حوالى الساعة الواحدة النصف عاد ريمون برفقه ماسو . كانت ذراعه ملفوفة وعلى أحد جانبى الفم يوجد رباط لاصق . كان الطبيب قد قال : إنها جروح بسيطة ، ولكن ريمون كان يبدو مهموما ، وراح ماسو يحاول أن يضحكه دون جدوى ، ثم قال : إنه سوف يهبط إلى الشاطىء ، فسألته إلى أين ؟ فيما قال ماسو : إننا سنرافقه ، وعندها هاج واغتاظ وراح يسبنا . فقال ماسو : إنه يجب ألا نعارضه ، ولكننى رحت أتبعه رغم ذلك .

مشينا وقتا طويلا على الشاطىء . كانت الشمس قد صارت لاتطاق ، وكأنها تتناثر قطعا قطعا فوق الرمال والبحر . أحسست أن ريمون كان يعرف إلى أين هو ذاهب ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فى نهاية الشاطىء وصلنا إلى نبع صغير يتدفق بين الرمال ، خلف صخرة كبيرة . وهناك وجدنا العربيين . كانا يرقدان فى هدوء بل ويبدو عليهما السعادة ، فى ملابسهما الزرقاء الملوثة ، ولم يغير وصولنا المفاجىء من الأمر ؛ فذلك الذى ضرب ريمون كان ينظر دون أن يقول شيئا ، فيما كان الآخر ينفخ فى قصبة قصيرة ويردد دون توقف النغمات الثلاثة الوحيدة التى كان يحصل عليها من آلته الموسيقية .

فى أثناء ذلك الوقت ، لم يكن هناك سوى الشمس والصمت ، مع صوت النبع والنغمات الثلاثة . ثم وضع ريمون يده فى جيبه وكان به مسدس ، ولكن الآخر لم يتحرك ، ودون أن يحول ريمون عينيه عن غريمه راح يسألنى : « هل أقتله ؟ » فأدركت أننى لو قلت : لا ، فإنه سوف يتهور ويعاند ويسارع بإطلاق النار ؛ ولذلك فقد اقتصرت على قول : « إنه لم يتحرش بك ، وسيكون ذلك شيئا بغيضا إن أطلقت النار دون ماسبب . » مازلنا لانسمع سوى صوت مياه النبع وصوت الناى وسط الصمت

والحرارة، ثم قال ريمون : « سوف أسبه ، وعندما يرد سوف أقتله » فقلت : هو ذاك ، ولكنه إن لم يخرج سكينه ، فلن تستطيع أن تضربه ، فهاج ريمون قليلا . كان الآخر لايزال يعزف على آلته وهما يراقبان تحركات ريمون ، فقلت لريمون : لا ، إن عليك أن تنازله باليد - رجلاً لرجل - فأعطنى سلاحك ، وإذا تدخل الآخر أو حاول أن يستخدم سكينه فسوف أطلق عليه النار .

عندما ناولنى ريمون المسدس ، راح يلمع تحت الشمس ، ثم وقفنا دون حراك ، كما لو كان شيء قد توقف من حولنا . كنا ننظر أحدنا إلى الآخر ، ولاشيء سوى ذلك فى تلك البقعة مابين البحر والرمل والشمس والصمت المزدوج الذى حل بمياه النبع والناى . وبينما كنت أفكرفى إطلاق النار من عدمه ، إذا بالعربيين ينسحبان إلى ماوراء الصخرة ، وعندها عدنا ، فيما بدا على ريمون الارتياح وراح يتحدث عن أتوبيس العودة .

صحبته حتى العشة ، وبينما راح يصعد السلم الخشبى ، توقفت - أنا - عند أول درجاته ، كان رأسى يدق بفعل الشمس ، حتى إننى كنت أشعر بالإحباط المسبق أمام المجهود اللازم لصعود تلك السلالم ثم الحديث مع النسوة . ولكن الحرارة كانت من الشدة بحيث يستحيل معها أن أظل واقفا تحت تلك الأشعة التى تتساقط من السماء لتعمى الأبصار ، فإما أن أبقى هنا أو أرحل ، كان كل ذلك يتساوى لدىَّ . بعد لحظات استدرت ناحية الشاطىء ، ورحت أسير . نفس اللهيب الأحمر فوق الرمال ، والبحر هو الآخر ، توقفت واختنقت أمواجه القصيرة .

رحت أسير فى بطء وعلى غير هدى تجاه الصخور . وكنت أحس وكأن جبهتى قد تورمت تحت وهج الشمس . كانت كل تلك الحرارة تثقلنى

وتعيق تقدمى ، وكلما أحسست بذلك اللهيب الحار يلفح وجهى ، كنت ضغط أسنانى بعضها فوق بعض ، وأضغط يدى بقوة داخل جيوب بنطلونى ، لقد كنت أمارس ضغطا هائلا على كل جسدى للانتصار على تلك الشمس وعلى تلك السكرة التى كانت تغمرنى ، كان فكاى يتقلصان، وكانت أسنانى تنقبض مع كل حزمة من الضوء تنعكس فوق الرمال أوفوق إحدى القواقع أوفوق قطعة من الزجاج ، لقد مشيت طويلا على تلك الحال .

ومن بعيد رايت كتلة الحجارة القاتمة ، محاطة بهالة وهاجة من ضوء الشمس ورذاذ البحر ، ففكرت فى نبع المياه الرطبة بين تلك الحجارة ، لقد كنت تواقا لسماع الخرير الهادىء لتلك المياه ، وتواقا للهروب من تلك الشمس ، ومن ذلك العناء ، ومن نحيب النسوة ، وتواقا أكثر من كل ذلك للوصول إلى الظل والراحة ، ولكننى عندما اقتربت من الصخرة وجدت غريم ريمون يرقد هناك .

كان يرقد وحيدا ، ظهره على الأرض ويداه متشابكتان تحت رأسه الذى كان فى ظل الصخرة ، فيما كان جسده كله تحت الشمس . كان الأمر كله مفاجأة لى ؛ لأن ذلك الأمر كله كان - من وجهه نظرى - قد انتهى ، حتى إننى قد جئت إلى هنا دون أن أفكر فيه .

وما إن رآنى ، حتى نهض ووضع يده فى جيبه - وفى حركه تلقائية - قمت أنا بالضغط على مسدس ريمون الذى كان فى جيبى ، فراح هو يتراجع للخلف ، ويده لاتزال فى جيبه . لقد كنت بعيدا عنه بما لايقل عن عشرة أمتار ، ولكننى كنت أتكهن بنظراته بين جفونه نصف المغلقة ، رغم أن هيكله كان يتراقص أمام عينى فى ذلك الهواء الملتهب ، فيما كانت ضوضاء

الأمواج المتكاسلة تصل إلى سمعى من بعيد ، وكانت الشمس هى نفس شمس الظهيرة الحامية ، والضوء هو نفس الضوء فوق الرمال . لقد انقضت ساعتان ولكن النهار لم يتقدم ، انقضت ساعتان منذ أن ألقى النهار مرساته فى ذلك المحيط من المعدن المنصهر . وعند الأفق لم يكن سوى بخار يمر ، وكانت هناك بقعة سوداء على مرمى البصر ، إنه ذلك العربى الذى لم أكن قد توقفت عن النظر إليه .

فكرت فى أنه ليس على إلا أن أستدير وأمشى وسوف ينتهى الأمر . ولكن شاطئا طويلا بأكمله كان يرتعد بفعل الشمس ويضغط على من الخلف ، فتقدمت قليلا ناحية نبع المياه ، فلم يتحرك العربى ، إنه لايزال بعيدا ، وقد خيل إلى أنه يضحك ، وربما كان ذلك بفعل الظلال الساقطة فوق وجهه ، فرحت انتظر . كانت الشمس تحرق وجهى وقطرات العرق تتجمع بين حاجِبَىّ . إنها نفس شمس اليوم الذى دفنت فيه أمى والذى كانت فيه جبهتى تؤلمنى ، وكانت كل العروق من تحتها تضرب بعنف . وبسبب تلك الحرارة التى لم أعد أحتملها ، تقدمت فى حركة خاطفة إلى الأمام ، لقد كان ذلك عملا أحمق ، فقد كنت أعرف أننى لن أتخلص من الشمس بتلك الحركة ، ولكننى كنت بالفعل قد تقدمت خطوة إلى الأمام، خطوة واحدة . وفى هذه المرة ، ودون أن ينهض ، أخرج العربى سكينه ، وأمسك بها تحت الشمس ، فكان الضوء ينعكس فوقها وكأنه نصل طويل ملتهب قد امتد ليصيب جبهتى . فى تلك اللحظة ،راح العرق المتجمع بين حاجبى يسيل فوق جفونى ويغطيها بحجاب دافىء سميك ، فلم أعد أرى شيئا خلف تلك الستارة من الدموع المالحة ، لم أعد أشعر إلا بضربات الشمس فوق جبهتى والبريق الخاطف المنبعث من السكين الممدود فى مواجهتى ، ذلك

البريق الذى كان يحرق رموشى ويخترق عينى المتعبتين . فى تلك اللحظة بالضبط ، حدث ما حدث ، فقد أرسل البحر ريحا ثقيلة ملتهبة ، وخيل إلى أن السماء قد انشقت عن آخرها وراحت تمطر نارا ، فتقلصت كل جوارحى ، وتشبثت يدى بالمسدس ، وهاهو ذا الزناد يلين تحت أصابعى ، وهاهى ذى الضوضاء الجافة المرتفعة التى من خلالها بدا كل شىء . نفضت العرق والشمس ، وعندها أدركت أننى كنت بالفعل قد حطمت هدوء ذلك اليوم، وكسرت صمت ذلك الشاطىء الذى كنت سعيدا فوقه .

عندها أطلقت طلقات أخرى أربعة على جسد هامد ، كانت الرصاصات تختفى داخله إلى الأبد . لقد كانت كطرقات قصيرة أربعة ، طرقها على باب الحزن والأسى .

الجزء الثالث



3

بعد ألقاء القبض على ، استجوبت عدة مرات ، ولكنها كانت، استجوابات خاصة بتحقيق الشخصية ولم تدم وقتا طويلا ، وفى المرة الأولى، فى قسم البوليس ، بدا وكأن موضوعى لايهم أحدا ، ولكن بعد ذلك بثمانية أيام ، راح قاضى التحقيق ينظر إلى فى فضول، ثم سألنى فى البداية عن اسمى ومهنتى وتاريخ ومحل الميلاد ، ثم أراد أن يعرف إذا ما كنت قد اخترت محاميا ، فقلت له : إننى لم أفعل ، ثم سألته عما إذا كان من الضرورى أن أختار واحدا . فسألنى - هو - بدوره : « لماذا ؟ » فقلت : لأننى أجد أن قضيتى سهلة وبسيطة ، فابتسم قائلا : «هذا هو أحد الآراء ، وبالرغم من ذلك ، فإن هناك قانونًا ، وإذا لم تختر فسوف نعين لك واحدا» فوجدت أنه من الأوفق أن تتكفل العدالة بذلك الأمر الهين ،وقد قلت له ذلك ، فوافقنى على ماقلته ، ثم أنهى حديثه قائلا : إن القانون لم يغفل شيئا إلا واحتطاط له .

فى البداية ، لم أكن قد أخذته مأخذ الجد ، كان قد استقبلنى فى حجرة تكسوها الستائر ، وفوق مكتبه كان هناك مصباح واحد يضىء المقعد الذى أجلسنى عليه ، فيما كان هو نفسه يقبع فى الظلام . كنت قد قرات وصفا مشابها فى أحد الكتب ، وعليه ، فقد بدا لى الأمر كله وكأنه تمثيلية ، ولكن بعد حورانا هذا ، نظرت إليه ، فرأيت رجلا طويلا ، دقيق الملامح ، له

عينان زرقاوان غائرتان ، وشارب رمادى ، وشعر أبيض كثيف . وقد بدا لى أن ذلك الرجل متعقل جدا ، وعلى درجة كبيرة من خفة الظل ، رغم تلك الغمزات اللا إرادية على أحد جانبى الفم ، حتى إننى - عند الخروج - قد هممت بمصافحته ، ولكننى تذكرت فى الوقت المناسب أننى كنت قد قتلت رجلا .

فى اليوم التالى ، جاءنى أحد المحامين فى السجن ، كان قصيرا وممتلئا ، ولايزال شابا ، وكان قد لصق شعره وصففه بعناية ، وبرغم الحرارة الشديدة ، كان يرتدى بدلة قاتمة ورباط عنق عجيب به خطوط ضخمة سوداء وبيضاء ، وضع المحامى حقيبته فوق سريرى ، ثم قدم لى نفسه وقال : إنه قد اطلع على ملفى ، وإن موقفى حرج ، ولكنه لايشك فى النجاح إذا ما أوليته ثقتى ، فشكرته ، فقال : « دعنا ندخل فى صلب الموضوع . »

جلس المحامى فوق السرير ، وشرح لى أنهم قد جمعوا بعض المعلومات عن حياتى الخاصة ، وأنهم قد عرفوا أن أمى قد ماتت حديثا فى دار المسنين ، وعليه فقد بحثوا أيضا فى مارينجو. وهناك قيل لهم : « إننى كنت قليل التأثر » يوم أن دفنوا أمى ، ثم أضاف : « لابد أن تعرف أننى أشعر بالحرج عندما أخوض فى شىء كَهذا ، ولكن ذلك مهم جدا ، ولسوف يكون ركنا هاما من أركان الاتهام ، إذا لم أجد شيئا أجيبهم به ، لقد أراد أن أساعده ، وسألنى إن كنت قد شعرت بالحزن فى ذلك اليوم ، ولقد أدهشنى كثيرا ذلك السؤال ، وأعتقد أننى كنت سأشعر بكثير من الحرج فى ذلك اليوم ، إذا قدر لى أن أطرح ذلك السؤال على أحد ، فأجبته بأننى لم أعد معتادا على مثل تلك الاستجوابات ، وأنه من العسير على أن أفيده فى ذلك ، ولاريب فى أننى كنت أحب أمى ، ولكن ذلك لايعنى شيئا ، فحتى

القديسين قد يأتى عليهم وقت يتمنون فيه الموت لمن يحبون ، وهنا ، قاطعنى المحامى وقد بدا عليه القلق ، ثم طلب أن أعده بألا أكرر ماقلته فى الجلسة أو أمام قاضى التحقيق ، فقلت له : إن طبيعة تكوينى تجعل احتياجاتى الجسدية تتعارض - فى غالب الأحيان - مع مشاعرى : ففى اليوم الذى دفنت فيه أمى ، كنت متعبا وفى حاجة إلى النوم ، حتى إننى لم أشعر بما حدث ، أما الشىء الذى أستطيع إن أجزم به فهو أننى كنت أفضل ألا تموت أمى ، ولكن المحامى لم تَبْدُ عليه الغبطة وقال : « إن ذلك ليس كافيا . »

ثم أخذ يفكر ، وبعدها سألنى إن كان يستطيع أن يقول - عنى - إنه فى ذلك اليوم كنت قد استطعت السيطرة على مشاعرى الطبيعية ، فقلت : «كلا » ، لأن ذلك ليس صحيحا ، فنظر إلى بطريقة عجيبة ، كما لو كنت قد سببت له شيئا من النفور . ثم قال فى لهجة تقترب من حد القسوة : «إنهم - وعلى : أية حال - سوف يستمعون إلى مدير وعاملى دار المسنين على أنهم شهود ، وإن « ذلك قد يسبب لى الكثير من المتاعب »، فأبديت له ملاحظة مفادها أن ذلك الأمر ليس له علاقة بموضوعى هذا ، فأجابنى بأنه من الواضح أننى لم تكن لى علاقه بالعدالة فى يوم من الأيام .

رحل الرجل وكان يبدو غاضبا . ولقد كنت أتمنى أن أوضح له أننى أريد الحفاظ على علاقة طيبة معه ، ليس لكى يحسن الدفاع عنى ، ولكن لأن ذلك هو الوضع الطبيعى ، خاصة وأننى كنت قد وضعته فى موضع حرج ، فلم يستطع أن يفهمنى ، وبالتالى فقد صار متحاملا علىّ بعض الشىء ، وعليه فقد كانت لدى الرغبة فى أن أؤكد له أننى طبيعى وأننى مثل كل

الناس، ولكن كل ذلك - فى الواقع - لم تكن له أية فائدة ، وبالتالى فقد عدلت عن ذلك بدافع الكسل .

مر بعض الوقت ، ثم قادونى من جديد أمام قاضى التحقيق . كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، وفى تلك المرة كان مكتبه مغمورا فى الضوء الذى كان يتدفق عبر أحد الستائر . كان الجو حارا . وبكثير من الكرم ، طلب إلى أن أجلس ، وقال : إن المحامى لم يستطع الحضور « لظروف طارئة » . وإن من حقى ألا أجيب عن أسئلته وأن أنتظر حضور المحامى لمساعدتى . فقلت : إننى أستطيع أن أجيب وحدى ، فضغط على زر فوق الطاولة ، فحضر أحد الكتبة واتخذ لنفسه موقعا خلف ظهرى تماما .

وها نحن استرخينا فى مقاعدنا ، وبدا الاستجواب ، فقال لى فى بادىء الأمر : إن من يعرفوننى يقولون : إننى دائم الصمت والانغلاق ، وأراد أن يعرف رأيى حول ذلك ، فقلت : « إن الأمر لايخرج - فى غالب الأحيان - عن أنه ليس لدى ما أقوله ؛ ولذا فإننى ألتزم الصمت . » فابتسم - كما فى المرة الأولى - واعترف أن ذلك سبب وجيه ، وأضاف : « علاوة على ذلك ، فإن هذا ليس له أية أهمية . » ثم صمت قليلا ، وهو ينظر إلى ، ثم اعتدل فجاة وقال بسرعة : « إن مايهمنى هو أنت شخصيا . » فلم أفهم على وجه التحديد ماالذى يعنيه ، وبالتالى لم أقل شيئا ، فأضاف هو قائلا : « إن فى تصرفاتك بعض الاشياء التى لا أفهمها ، وأنا متأكد من أنك ستعيننى على الإلمام بها . » فقلت: إنه ليس هناك أبسط من ذلك ، فطلب أن أقص عليه ماحدث فى ذلك اليوم ، فرويت ماكنت قد قلته من قبل : « ريمون ، الشاطىء ، السباحة ، الشجار ، ثم الشاطىء ثانية ، النبع الصغير ، الشمس ، طلقات المسدس الخمسة . » وبعد كل جملة كان يقول « حسنا ،

حسنا » وعندما وصلت إلى الجسد الهامد الملقى على الأرض قال : « طيب» . أما أنا فكنت قد مللت تكرار نفس هذه القصة ، حتى إننى لم أتكلم فى حياتى كما فعلت فى ذلك اليوم .

بعد لحظات من الصمت ، نهض القاضى قائلا : إنه يريد أن يساعدنى وإن أمرى يعنيه ، وإنه - بعون الله - سيفعل مابوسعه من أجلى ، ولكنه يريد قبل ذلك أن يلقى على مزيدا من الأسئلة . ثم - ودون أية مقدمات - سألنى إن كنت قد أحببت أمى ، فقلت « نعم ، مثل كل الناس » وعند ذلك يبدو أن الكاتب - الذى كان يدق بانتظام على آلته - قد أخطا ؛ لأنه تعثر واضطر للرجوع إلى الخلف من جديد، ثم سألنى القاضى - دون أن أفهم المنطق من وراء ذلك - إن كنت قد أطلقت الرصاصات الخمسة على التوالى، ففكرت قليلا ، ثم أوضحت أننى أطلقت واحدة فى بادىء الأمر ، وبعد عدة ثوان أطلقت الأربع ، فسألنى : « ولماذا انتظرت بين الطلقة الأولى والطلقات التالية ؟ » فعدت من جديد أتذكر الشاطىء المتوهج ، وشعرت بلهيب الشمس فوق جبهتى ، ولكننى لم أقل شيئا ، وعندها بدا القلق على القاضى ، فجلس ثانية ، ثم حك رأسه ، ووضع مرفقيه فوق مكتبه ، وانحنى قليلا إلى ناحيتى ، وبدا عليه التعجب وهو يسألنى : «لماذا ؟ لماذا أطلقت النار على جسد مطروح على الأرض ؟ » وهنا أيضا لم أجد ما أقوله، فمر القاضى براحته فوق جبهته وكرر سؤاله فى صوت متهدج : « لماذا ؟ يجب أن تقول لى لماذا ؟ » ولكننى لم أتخل عن الصمت .

وفجأة ، نهض واقفا ، ثم سار فى خطوات واسعة نحو ركن المكتب ، وفتح أحد الأدارج ، ثم أخرج صليبا من الفضة وراح يعده ناحيتى . وبصوت مختلف ، مرتعش تقريبا ، صاح : « هل تعرف ماهذا ؟ » فقلت :

« نعم ، بالطبع . » فقال بسرعة وفى صوت متأثر : إنه يؤمن بالله ، وإنه يؤمن أيضا بأنه مامن إنسان على الأرض تصل سيئاته إلى الحد الذى لايغفره له الله . ولكن يجب على الإنسان - فى المقابل - أن يعود بريئًا كالطفل ، وأن تعود روحه خالية من الشرور والآثام ومستعدة لتقبل كل ماهو خير من جديد . كان مائلا بكل جسده على الطاولة ، وكان يهز صليبه فوق رأسى تقريبا - والحق يقال ، أننى لم أكن قد تابعت حججه وأسانيده جيدا ؛ لأننى كنت أشعر بالحرارة ، ولأنه كانت هناك ذبابات كبيرة تأتى باستمرار لتستقر فوق وجهى ، ولأنه أيضا كان يخيفنى إلى حد ما ، ولكن يجب أن أعترف - فى الوقت نفسه - بأن ذلك أمر مضحك ؛ لأننى - أنا - المجرم على كل حال ، ومع ذلك عاد يقول ما يفهم منه أنه استوعب الموضوع ، ولكن لازالت هناك نقطة غامضة فى اعترافاتى ، وهى المتعلقة بانتظارى لعدة لحظات قبل أن أطلق الدفعة الثانية من الطلقات ، أما فيما عدا ذلك فكل شىء واضح جلى .

رحت أقول : إنه قد يكون على خطأ إذا واصل المحاورة ، وإن تلك النقطة ليس لها أهمية كبيرة ، ولكنه قاطعنى وسألنى إن كنت أومن بالله ، فقلت : لا ، فجلس وخيبة الأمل بادية عليه ، ثم قال : إن ذلك مستحيل، وإن كل الناس تؤمن بالله ، حتى أولئك الذين لا يفعلون شيئا لإرضائه ، وإن تلك عقيدته ، ولسوف تفقد حياته كلها معناها إذا حدث وكان عليه أن يشكك فى ذلك ، ثم سأل : « فهل تريد أن تصبح حياتى عديمة المعنى؟ » ولقد كان من رايى أن ذلك شىء لا يعنينى ، فقلت له ذلك . ولكنه ـ وعبر الطاولة - وضع المسيح المصلوب أمام عينى وراح يقول بلهجة ينقصها التعقل : « أنا مسيحى ؛ ولذا فإننى أطلب إلى المسيح أن

يغفر خطاياك . كيف لا تستطيع أن تؤمن بأنه قد عانى من أجلك ؟ » ولقد لاحظت أنه بدا يتقرب إلى ، ولكننى كنت قد مللت كل ذلك . كانت الحرارة لاتزال ترتفع . وكما هى عادتى عندما أريد التخلص من شخص ما ، فإننى لا أنصت إلا إلى القليل مما يقوله ، ثم تبدو على وجهى علامات الموافقة . وقد دهشت فقد اعتقد أنه قد انتصر أخيرا ثم قال : « هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ أليس كذلك أنك تؤمن به ، وأنك سوف تسلم كل أمورك إليه؟» وبالطبع فقد قلت : « لا » مرة أخرى ، فسقط القاضى فوق مقعده وهو بادى التعب ، وجلس صامتا عدة لحظات فيما راحت الآلة التى لم تتوقف عن متابعة الحديث تنهى تسجيل الكلمات الأخيرة ، ثم نظر إلى متأملا وقد بدا عليه الحزن ، وراح يهمهم : « لم أر فى حياتى كلها روحا قاسية مثل روحك ، فكل المجرمين الذين مثلوا أمامى بكوا عندما رأوا منظر المسيح المعذب . » وبينما كنت أهم أن أقول : بالطبع لأنهم كانوا مجرمين ، تذكرت أننى أيضا مثلهم . لقد كان من الصعب أن أتأقلم مع تلك الحقيقة، فنهض واقفا ، كما لو كان يريد أن يفهمنى أن الاستجواب قد انتهى ، ثم سألنى - وقد بدت عليه علامات نفاد الصبر - عما إذا كنت نادما على ما اقترفته ، ففكرت قليلا ثم قلت : إنه ليس ندما حقيقيا ، لكننى أشعر ببعض الضيق . وقد بدا عليه أنه لم يفهمنى . وفى ذلك اليوم توقفت الأمور عند ذلك الحد .

فيما بعد ، رأيت قاضى التحقيق مرات عديدة ، ولكننى كنت فى كل مرة مصحوبا بالمحامى ، كانوا يصرون على أن أوضح لهم نقاطًا معينة من اعترافاتى السابقة ، وكانا يناقشان - معا - فى بنود الاتهام ، ولكنهما - فى الحقيقة خلال تلك المناقشات لم يكونا يهتمان بى على الإطلاق . ومع مرور

الوقت - على أى حال - كانت لهجة الاستجواب قد تغيرت ، فبدا أن القاضى لم يعد مهتما بشخصى ، وأنه لم يعد يهمه مايئول إليه أمرى ، فلم يعد يحدثنى عن الله ، ولم أره بعد ذلك فى ثورته التى كان عليها فى اليوم الأول. والنتيجة هى أن حوارنا قد صار أكثر ودا وصفاءً ؛ فبعد بعض الأسئلة ، وبعض الحديث مع المحامى يكون الاستجواب قد انتهى . وهكذا كانت قضيتى تأخذ مسارها ، على حد تعبير القاضى نفسه . وفى بعض الأحيان ـ عندما كان الحديث يتطرق إلى مواضيع عامة ـ كانوا يشركوننى ، حتى إننى بدأت أشعر بالراحة ؛ فخلال تلك الساعات ، لم يكن هناك من يقسو على، وكل شىء كان يبدو لى طبيعيا ومنظوما وجيد التمثيل ، حتى إننى قد راودنى شعور مضحك بأننى « قد صرت جزءا من تلك العائلة » . وخلال الاثنى عشرا شهرا التى استغرقها ذلك التحقيق ، أستطيع أن أقول - بدهشة - : إن أكثر اللحظات سعادة كانت تلك التى كان القاضى يصحبنى فيها إلى الباب ، ثم يربت على كتفى قائلا فى ود : «يكفى ذلك اليوم ياسيدى عدو المسيح » وعندها كان يتركنى لرجال البوليس .

هناك بعض الأشياء لم أحب أبدا أن أتحدث عنها . فعندما دخلت «إلى السجن ، أدركت - بعد عدة أيام - أننى لن أحب الحديث عن ذلك الجزء من حياتى .

وفيما بعد ، لم أعد أجد هناك أهمية لذلك النفور من تلك الأشياء ؛ ففى الواقع ، لم أكن حقيقة أعتبر أننى مسجون فى أول الأمر : فلقد كنت فقط أنتظر - دون تحديد - ماستتمخض عنه الأحداث ، ولكن كل شىء بدا فقط بعد الزيارة الأولى والوحيدة لمارى ، وبالتحديد فى اليوم الذى تلقيت

فيه رسالتها (كانت تقول : إنهم لن يعودوا يسمحون لها بزيارتى ؛ لأنها لم تكن زوجتى) . منذ ذلك اليوم ، شعرت أننى مسجون فى زنزانتى ، وأن حياتى قد توقفت داخل جدارنها . فيوم أن قبضوا على ، كانوا قد وضعونى فى غرفة بها الكثير من الموقوفين ، أغلبهم من العرب . وقد ضحكوا عندما رأونى بينهم، ثم سألونى عما فعلته فقلت : إننى قتلت واحدا من العرب ، فصمتوا لفترة، ولكن فيما بعد - عندما حل المساء - شرحوا لى كيف أضع الحصيرة التى سأنام عليها ، فعندما نطوى أحد أطرافها نستطيع أن نصنع مايشبه الوسادة . وطوال الليل كان البق يسير فوق وجهى . بعد عدة أيام ، تم عزلى في زنزانة منفردة حيث كنت أنام على سرير منخفض من الخشب . وأعطونى دلوًا للتبول وطشتًا من الحديد . كان السجن فى أعلى البلدة ، ومن النافذة الصغيرة كنت أستطيع أن ألمح البحر . وفى أحد الأيام ، بينما كنت متعلقا بالقضبان ، أمد وجهى ناحية الضوء ، دخل أحد الحراس وقال : إن هناك زيارة من أجلى ، فعرفت أنها مارى ، وقد كانت هى بالفعل .

تبعته إلى حيث توجد قاعة الحديث ، عبر ممر طويل ، ثم صعدنا السلم، ثم ممر آخر ، ثم دخلت إلى قاعة كبيرة تضيئها فتحة واسعة فى السقف . كانت تلك القاعة مقسمة طوليا بواسطة شبكتين معد نيتين إلى ثلاثة أقسام ، وبين هاتين الشبكتين كانت هناك مسافة تفصل بين الزوار والمساجين قد تصل إلى عشرة أمتار . هناك فى مواجهتى رأيت مارى فى ثوبها ذى الخطوط ووجهها البرونزى . فى الجهة التى كنت فيها ، كان هناك حوالى عشرة مساجين ، غالبيتهم من العرب ، فيما كانت مارى محاطة بالزائرات العربيات ، فإلى جانبها كانت هناك : عجوز قصيرة تتشح بالسواد من ناحية ، ومرأة ضخمة تتكلم بصوت مرتفع وبكثير من التعبيرات اليدوية .

ونظرا للمسافة الفاصلة بينهما ، فإن الزوار والمساجين كانوا يتكلمون بصوت مرتفع جدا. وعندما دخلت ، فإن الضوضاء التى كانت تنعكس على حوائط القاعة العادية ، والضوء المباشر الساقط من السماء على الزجاج ليتجمع بعد ذلك داخل القاعة ، قد سببا لى نوعا من الانزعاج ؛ فزنزانتى كانت أكثر هدوءًا وأكثر ظلمة .وكان لابد من عدة ثوان حتى أتعود على تلك القاعة . وانتهى الأمر بأن أصبحت أرى كل الوجوه من حولى بدقة . كان هناك أحد الحراس جالسا فى نهاية الممر بين الشبكتين . غالبية المساجين العرب وذويهم كانوا يقفون وجها لوجه . وهؤلاء همهماتهم المكتومة وكأنها نغمة منخفضة لاتنقطع تصاحب الأحاديث التى كانت تتلاقى فوق رءوسهم . لاحظت كل ذلك بسرعة وانا أتقدم تجاه مارى ، وكانت بالفعل قد التصقت بالشبكة المعدنية ، وراحت تبتسم بكل قوتها . لقد كانت جميلة، ولكننى لم أعرف كيف أقول لها ذلك ، ثم قالت : « وماذ ا بعد ؟» فقلت: « هأنت ترين . » « هل لديك كل ماتريد ؟ » « نعم . كل ما أريد. » ثم سكتنا ، ولم تجد مارى سوى الابتسام . المرأة الضخمة إلى جوارها كانت تصرخ نحو جارى ، زوجها دون شك ، وهو رجل طويل أشقر ذو نظرات صريحة مباشرة كانت المرأة تقول : « جان لم تريد أن تأخذه » فقال الرجل : « نعم ، نعم . » فتقول المرأة : « لقد قلت لها : إنك ستأخذه عندما تخرج ، ولكنها رفضت أن تأخذه . » فراحت مارى تصرخ بدورها وتقول : إن ريمون يبعث إليك بتحياته ، فقلت : «شكرا . » ولكن صوتى ضاع تحت صوت جارى الذى راح يسأل زوجته « إن كانت فى حالة جيدة» . فضحكت الزوجة قائلة : «إنها لم تكن فى حياتها أفضل مما هى عليه الآن » جارى إلى اليسار كان شابا ، ولم يكن يقول شيئا ، كان فى مواجهة

العجوز القصيرة ، وكانا يتبادلان النظرات العميقة ، ولم أستطع مراقبتهما لأكثر من ذلك ؛ لأن مارى صرخت قائلة : « يجب أن تتشبث بالأمل » فقلت : نعم . ورحت - فى نفس الوقت - أنظر إليها ، فقد كنت أريد أن أضم كتفيها وأتلمس ثوبها الناعم ، ولم أكن اعرف بالضبط ماهو الأمل الذى يجب أن أتشبث به فيما عدا ذلك ، ولاريب أن مارى أيضا كانت تعنى ذلك ؛ لأنها كانت لاتزال تبتسم ، ولم أعد أرى سوى بريق أسنانها وعينيها ، ثم صرخت من جديد : « سوف تخرج ، وعندها سوف نتزوج ! » فقلت : «أتعتقدين ذلك ؟ » لأننى كنت فقط أريد أن أقول شيئا . فقالت بسرعة وبصوت مرتفع : إننى سيفرج عنى ، وإننا سنعود للاستحمام معًا من جديد! ولكن المرأة الضخمة إلى جانبها راحت تصرخ نحو زوجها قائلة : إنها تركت له لدى الحرس سلة مليئة بالأشياء الغالية الثمن . أما جارى الآخر فكان لايزال ينظر إلى أمه ، فى حين أن همهمة العرب مستمرة من فوقنا . وفى الخارج بدا الضوء وكأنه قد تجمع دفعة واحدة فوق الفتحة الواسعة .

شعرت بأننى مريض بعض الشىء . وكنت أرغب فى الرحيل ، فقد كانت الضوضاء تؤلمنى ، ولكننى أردت - بالرغم من ذلك ـ أن أستمتع بصحبة مارى ، ولا أدرى كم من الوقت مر بنا على تلك الحال ؛ فقد حدثتنى عن عملها ولم تتوقف عن الابتسام . كانت الهمهمة والصراخ والكلمات تتلاقى . البقعة الوحيدة الصامتة كانت بجوارى حول ذلك الشاب وتلك العجوز ، ثم اصطحبوا العرب إلى الداخل ، فصمت الباقون، واقتربت العجوز من القضبان ، وفى نفس اللحظة أشار الحارس إلى ولدها الذى قال : « إلى اللقاء ياأمى . » وراح يبعث إليها بإشارة الوداع من بين القضبان ، ثم رحلت العجوز ، وأخذ مكانها رجل يمسك قبعته بين

يديه ، ثم أدخلوا أحد المساجين وراح الاثنان يتحدثان فى حرارة ولكن بصوت منخفض ؛ لأن القاعة كانت قد عادت إلى الهدوء . ثم جاءوا يأخذون جارى إلى اليمين ، فقالت زوجته دون أن تخفض صوتها وكأنها لم تلاحظ أنه لم يعد من الضرورى أن تصرخ : « اهتم بنفسك وانتبه لصحتك. » ثم جاء دورى فأشارت إلى مارى بما يعنى أنها تقبلنى ، فاستدرت واختفيت ، فيما ظلت هى واقفة ، ووجهها ملتصق بالشبكة المعدنية ومرسوم عليه نفس الابتسامة العريضة المتشنجة .

بعد ذلك بوقت قليل كتبت إلى . ومنذ تلك اللحظة بدأت الأشياء التى لم أكن أحب أن أتحدث عنها أبدًا على كل حال ، يجب ألا نبالغ كثيرا ؛ لأن ماحدث لى كان أقل بكثير مما حدث لأناس آخرين ، ورغم ذلك ، ففى بداية فترة السجن ، كنت أفكر كرجل حر طليق ، وكان ذلك من أقسى الأمور ؛ لأننى كنت مثلا أتشوق لأن أكون على الشاطىء وأتلهف لنزول البحر . وعندما كنت أتخيل صوت الأمواج تحت قدمى ، وجسدى عندما يلتقى بالمياه والسعادة التى أحسها عند ذلك ، كنت أشعر كم هى ضيقة تلك الزنزانة ، وكم هى قريبة حوائطها ، ولكن ذلك لم يستمر سوى عدة أشهر ،وبعد ذلك كنت قد تعودت على أفكار السجناء ، فكنت أنتظر النزهة اليومية التى كنت أقضيها فى الفناء ، أو زيارة المحامى . وبالنسبة لباقى الوقت فقد تعودت عليه تماما ، حتى إننى أصبحت أفكر دائما في أنهم لوجعلونى أعيش داخل جذع شجرة جاف ، دون أن يكون لدى شىء أفعله سوى النظر إلى مساحة السماء التى فوق رأسى ، فإننى لابد وأن أتعود شيئا فشيئا على ذلك . فسأنتظر مثلا أوقات مرور العصافير ولحظات التقاء السحب ، كما أفعل هنا من انتظار أربطة عنق المحامى العجيبة ، وكما كنت

أفعل فى العالم الآخر ، عندما كنت أصبر حتى يوم السبت للالتقاء بماري . وإذا مافكرت جيدا ، فإننى - على أى حال - لم أكن داخل شجرة جافة . ولابد أن هناك من هم أسوأ منى حالا . لقد كانت تلك إحدى أفكار أمى ، فقد كانت تردد دوما أننا - مع الوقت - نتعود على كل شيء .

فيما عدا ذلك ، لم تكن طموحاتى تذهب حتى إلى أبعد من الحدود العادية . ورغم أن الشهور الأولى كانت بالغة الصعوبة ، فإننى تمكنت من اجتيازها بفضل الجهود التى بذلتها . ففى تلك الفترة ـ على سبيل المثال ـ كانت الرغبة فى النساء تقض مضجعى ، ولقد كان ذلك طبيعيا ؛ لأننى كنت شابا ، لم أكن أفكر فى مارى على وجه الخصوص ، ولكننى كنت أفكر كثيرا فى أية واحدة من النساء ، فى كل النساء اللاتى عرفتهن ، وفى كل المناسبات التى فيها أحببتهن . وكنت أتمنى أن تمتلىء زنزانتى عن آخرها بكل تلك الوجوه . من ناحية كان ذلك يتسبب فى الإخلال بتوازنى ، ولكن من الناحية الأخرى فإنه كان يعمل على قتل الوقت . كنت قد تمكنت - بعد فترة- من الاستحواذ على تعاطف كبير الحراس الذى كان يرافق الطاهى أثناء الوجبات . وفى بداية الأمر ، كان هو الذى حدثنى عن النساء ، فقال : إن ذلك هو الشيء الأول الذى يعانى منه المساجين ، فقلت : إننى أعانى مثلهم تماما ، وإننى أجد أن تلك معاملة غير عادلة ، فقال : « ولكننا نضعكم فى السجن من أجل هذا . فسألته : من أجل هذا ؟ كيف ذلك ؟ فقال : نعم إن الحرية هى هذا ، ونحن نحرمكم من الحرية ، ولم أكن قد فكرت في ذلك على الإطلاق ، فأيدته قائلا : هذا صحيح . وإلا فأين سيكون العقاب ؟ فقال الحارس وهو ينصرف : « نعم ، يبدو أنك تفهم تلك الأشياء عكس الآخرين ، ولكنهم فى نهاية الأمر يعرفون كيف يتغلبون على ذلك بأنفسهم . »

كانت هناك أيضا السجائر ، فعندما دخلت إلى السجن ، كانوا قد أخذوا حزامى ، وأربطة حذائى ورباط عنقى ، وكل ماكنت أحمله فى جيبوبى ، وبالذات سجائرى . وعندما صرت فى الزنزانة طلبت أن يعيدوها إلى ، ولكنهم قالوا : إن ذلك محظور . ولقد كانت الأيام الأولى قاسية . حتى إنه - ربما يكون ذلك - هو أكثر ما عانيت منه ، فكنت أمتص قطعا من الخشب أنتزعها من السرير . وكنت أشعر بالغثيان طوال اليوم ، ولم أكن أفهم لماذا يحرموننى من شىء كهذا لا يسبب أضرارًا لأى إنسان ، ثم فهمت بعد ذلك أنه يمثل أيضا نوعا من العقاب ، ثم تعودت على عدم التدخين ، وبالتالى فإن ذلك لم يعد يمثل بالنسبة لى أى عقاب .

وفيما خلا تلك المتاعب ، لم أكن تعيسا ؛ فألمسالة - كما قلت لكم - كانت كيف أقتل الوقت ، ثم انتهى الأمر إلى أننى لم أعد أشعر بالضيق ، وذلك منذ اللحظة التى تعلمت فيها كيف أستعيد الذكريات ، ففى بعض المرات ، كنت أفكر فى حجرتى ، وكنت أذهب إلى أحد الأركان - بالخيال طبعا - ثم أعود وأنا أعدد فى ذهنى ماهو موجود فى طريق . فى البداية كان ذلك يتم بسرعة ، ولكن مع كل مرة جديدة ، كان الوقت يطول ويطول ؛ لأننى كنت أتذكر كل قطعة موجودة ، وكل شىء يوجد بداخل كل واحدة من تلك القطع . ثم كل التفاصيل عن كل واحدة من تلك الأشياء . وعن التفاصيل نفسها كنت أحاول أن أتذكر كل دقائق تلك التفاصيل . فى نفس الوقت كنت أحاول ألا ينقطع حبل تلك الأفكار ، وكنت مشغولا بعمل حصر كامل وشامل ، حتى إننى فى ظرف عدة أسابيع كنت أستطيع أن أقضى ساعات طويلة - دون ملل - فى تعديد الأشياء التي كانت موجودة بحجرتى ، وكنت كلما فكرت أكثر عثرت فى ذاكرتى على أشياء أخرى كانت

مهملة أو منسية ، وعند ذلك الحد فهمت أن رجلا لم يعش مسجونا يوما واحدا ، يمكنه - دون عناء - أن يعيش داخل السجن مائة عام .

هناك أيضا : ففى البداية ، كنت لا أنام جيدا فى الليل ، ولم أكن أنام على الإطلاق فى النهار ، ولكن شيئا فشيئا ، صارت الليالى أفضل ، وصرت أنام أيضا بالنهار حتى إننى يمكن أن أقول : إنه فى الشهور الأخيرة ، كنت أنام من ست عشرة إلى ثمانى عشرة ساعة يوميا ، وتبقى لدى فقط ست ساعات أقتلها فى الأكل ، وقضاء الحاجات الطبيعية والذكريات وقصة التشيكوسلوفاكى .

بين الحصيرة التى أنام عليها وظهر السرير ، كنت قد عثرت على قطعة رقيقة صفراء اللون من ورق الصحف ، وكان مكتوبا عليها قصة حادثة ضاعت بدايتها ، ولكنها كانت قد حدثت فى تشيكوسلوفاكيا . وفحواها أن رجلا كان قد غادر قريته بحثا عن الثروة ، وبعد خمسة وعشرين عاما عاد الرجل إلى قريته بالثروة وبزوجة وأحد الأطفال ، وكانت أمه تدير - برفقة أخته - فندقا صغيرا فى تلك القرية ، فأراد الرجل أن يدبر لهما مفاجاة ، فترك زوجته وولده فى مكان آخر ، وذهب إلى أمه فلم تتعرف عليه عند دخوله عليها ، وكذلك لم تتعرف عليه أخته ؛ ولذا فقد راودته فكرة مداعبتهما ، فاستاجر إحدى الغرف ، وكان قبل ذلك قد أراهم ثروته ، وفى الليل قامت الأم والأخت بقتل الرجل وسرقة ثروته ، ثم ألقتا بجثته فى مياه النهر ، وفى الصباح ، أقبلت الزوجة ، دون أن تعلم بما حدث ، كشفت النقاب عن الدعابة وعن شخصية زوجها ، وعند ذلك شنقت الأم نفسها ، وانتحرت الأخت داخل إحدي الآبار . ولقد قرأت تلك الحادثة آلاف المرات ؛ لأنها كانت مسلية من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كانت حقيقية . ولقد كنت

أعتقد - على كل حال - أن الرجل قد استحق - إلى حد ما - ذلك الذى أصابه ؛ لأننى أعتقد أنه يجب عدم خلط الجد بالهزل على الإطلاق .

ومع ساعات النوم ، والذكريات ، وقراءة الحادثة ، وتعاقب الضوء والظلام ، كان الوقت يمر . وكنت قد قرأت أن الإنسان - فى السجن - ينتهى به الأمر إلى فقدان الإحساس بالوقت . ولكن كل ذلك لم يكن له أى معنى لدى ؛ فلم أكن قد فهمت إلى أى مدى يمكن أن تكون الأيام طويلة وقصيرة فى نفس الوقت . لقد كانت الأيام - بلا شك - طويلة ، ومتباعدة حتى إن بعضها كان يستطيل ليطغى على البعض الآخر . ولم يعد لها أسماء ، فالكلمات أمس وغدا كانت هى الكلمات الوحيدة التى بقيت ذات معنى فى نظرى .

وفى أحد الأيام ، قال الحارس إنه قد مر عَلَىَّ خمسة شهور . وقد صدقته ، ولكننى لم أفهمه . فبالنسبة له ، لم يكن هناك سوى يوم واحد هو الذى يتوالى دون توقف داخل زنزانتى ، ولم يكن هناك سوى نفس البقعة الضوئية التى أرقبها . وفى ذلك اليوم ، بعد رحيل الحارس ، رحت أنظر إلى وجهى فى الإناء الحديدى ، وقد خيل إلى أن صورتى ظلت على حالها من الجدية والصرامة ، رغم أننى كنت أحاول أن أبتسم لها ، ابتسمت من جديد ، ولكنها احتفظت بنفس القسوة وبنفس الحزن . كان النهار يوشك على الانتهاء ، وكانت تلك هى الساعة التى لا أرغب فى الحديث عنها ، تلك الساعة التى لا أعرف لها اسما ، والتى تتصاعد فيها ضوضاء الليل من جميع طوابق السجن فى تظاهرة صامتة .

اقتربت من الفتحة ، ورحت أتامل صورتى مرة ثانية ، على ذلك الشعاع الأخير من الضوء كانت الصورة لاتزال جادة وحزينة ، ولم يكن ذلك

عجيبا، ففى تلك اللحظة ، كنت أنا أيضا جادا وكنت حزينا ، وفى نفس الوقت ـ ولأول مرة منذ شهور طويلة ـ سمعت نبرة صوتى ، وتعرفت عليها، لقد كانت هى تلك النبرة التى ظلت ترن فى أذنى أياما طويلة ، وفهمت أنني كنت - خلال كل ذلك الوقت - أتحدث إلى نفسى ، وعند ذلك تذكرت ما كانت قد قالته المرضة يوم أن دفنت أمى . لا ، ليس هناك من مخرج ، وليس هناك أى شخص يستطيع أن يتخيل كيف تكون الليالى داخل السجون .

أستطيع أن أقول - فى الواقع - : إن الصيف قد حل بسرعة محل الصيف . وكنت أعرف أنه مع بدء ارتفاع الحرارة ، سوف يحدث لى شىء جديد ، فلقد كانت قضيتى مسجلة فى الدورة الأخيرة من دورات محكمة الجنايات ، تلك الدورة التى ستنتهى مع نهاية شهر يونيو ، وقد بدأت المناقشات ، فيما كانت الشمس ساطعة بالخارج ، وكان المحامى قد أكد لى أن تلك المناقشات لن تدوم أكثر من يومين أو ثلاثة ، ثم أضاف قائلا : « ثم إن المحكمة ستكون فى عجلة من أمرها ، وقضيتك ليست هى الأكثر أهميه فى تلك الدورة ؛ فهناك قضية ابن قتل أباه تليها مباشرة . »

وفى السابعة والنصف صباحا ، قادونى فى عربة المساجين إلى المحكمة ، ثم أدخلنى رجلا البوليس إلى حجرة صغيرة مظلمة ، ثم جلسنا ننتظر بالقرب من أحد الأبواب الذى كنا نسمع خلفه أصواتا ونداءات ، وضوضاء مقاعد وأشياء أخرى ، مما جعلنى أتذكر ضوضاء تلك الاحتفالات الصغيرة، التى يقومون فيها بإعاده ترتيب الصالة وتجهيزها للرقص بعد أن ينتهى الحفل. وقد قال رجلا البوليس : إنه يجب انتظار نداء المحكمة ، وقدم أحدهم سيجارة فرفضتها ، فسألنى : « إن كنت خائفا » فأجبته بالنفى ،

وإنه يهمنى أن أرى إحدى القضايا ، وإن تلك الفرصة لم تُتَحْ لى من قبل ، فقال الرجل الآخر : « نعم ، ولكن ذلك عادة ماينتهى بنا إلى الملل . »

بعد قليل من الوقت ، دق جرس صغير بالحجرة ، وعندها نزعا القيد الحديدى من يدى ثم أدخلانى إلى قفص المتهمين . كانت القاعه مليئة عن آخرها ، ورغم وجود الستائر فإن الشمس كانت بالداخل ، وكان الهواء ثقيلا ؛ لأن زجاج النوافذ كان مغلقا . جلست ومن حولى رجلا البوليس . وفى تلك اللحظة رأيت أن هناك صفا من الوجوه فى مواجهتى ، كانوا ينظرون إلى ، ففهمت أنهم المحلفون ، ولكنى لا أستطيع أن أقول : إن هناك مايميزهم عن الآخرين ، غير أننى شعرت كمن يجلس فى الترام أمام صف من المسافرين المجهولين الذين كانوا يتفحصون الوافد الجديد لمعرفة مواطن السخرية فيه ، لكننى كنت أدرك أن تلك فكرة بلهاء ؛ لأنهم هنا لم يكونوا يبحثون عن السخرية ولكنها الجريمة ، ومع ذلك لم يكن هناك فرق كبير ، ولقد كانت تلك - على كل حال - هى الفكرة التي راودتنى .

كنت أيضا أشعر ببعض الدوار لكثرة الحاضرين فى تلك القاعة المغلقة . نظرت مرة أخرى ناحية المنصة ، فلم أميز وجها واحدا من وجوه الحاضرين . وفى البداية لم ألاحظ أن جميع الحاضرين كانوا يتزاحمون لرؤيتى ؛ فالناس - فى الأحوال العادية - لايهتمون كثيرا بشخصى ، ولكننى فهمت بعد ذلك أننى كنت السبب وراء كل تلك التزاحمات ، فقلت لرجل البوليس : « إن هناك خلقًا كثيرا ! » فأجابنى أن ذلك بفعل الصحف ، وأشار إلى مجموعة من الناس يجلسون بالقرب من إحدى الطاولات تحت منصة المحلفين وقال : « هاهم . » فسألته من ؟ فكرر قوله : « الصحف . » وقد كان يعرف بالفعل أحدهم الذى ما إن رآه حتى تقدم ناحيتنا . كان

رجلا مسنا ، لطيفا ، رغم وجهه العابس قليلا ، فشد على يد رجل البوليس بحرارة . وقد لاحظت فى تلك اللحظة أن الناس كلهم يتقابلون ويتصافحون ويتجاذبون الحديث فى سعادة كما لوكانوا فى أحد الأندية ، ثم حاولت أيضا أن أفسر لنفسى ذلك الشعور العجيب الذى اعترانى من أننى شخص غير مرغوب فيه وسط ذلك الجمع ، وأننى دخيل عليهم ، وعلى الرغم من ذلك توجه الصحفى إلى مبتسما ، وقال : إنه يتمنى أن تسير أمورى على أحسن مايكون ، فشكرته ، وارح هو يضيف : « لقد تسببنا – نحن – فى تسخين قضيتكم إلى حد ما ؛ فالصيف هو فصل ندرة الاخبار ، فلم يكن هناك ما يستحق الذكر سوى قضيتكم وقضية ذلك الرجل الذى قتل أباه . ثم أشار إلى مجموعة الصحفيين ، وبالتحديد إلى رجل قصير يشبه العرسة الثمينة وله نظارات ضخمة يحيطها إطار أسود ، وقال : « إنه مراسل خاص لإحدى الصحف الباريسية ، وهو لم يحضر خصيصا لقضيتك ، ولكن نظرا لأنه مكلف متابعة قضية اغتيال الأب . فقد طلبوا إليه أن يبرق إليهم بما يستجد فى قضيتكم أيضا . » وقد كنت على وشك أن أشكره على هذا ، ولكننى اكتشفت أن ذلك سيكون سخيفا . وأخيرًا أشار إلى بيده فى رقة ثم غادرنا .

ثم وصل المحامى الذى سيدافع عنى برفقة مجموعة من زملائه ، وتوجه إلى حيث يوجد الصحفيون ، فصافح بعضهم ، وراحوا يتفكهون ، يضحكون ، وبدا الجميع فى أحسن حال ، إلى أن دق جرس المنصة ، فعاد الجميع إلى مجالسهم ، وجاء المحامى ناحيتى ، ثم صافحنى ، ونصحنى أن أجيب باختصار عن الاسئلة التى ستوجه إلى ، وأن أتجنب المبادأة بالحديث ، وأن أترك على كاهله كل ماعدا ذلك .

إلى يسارى ، رأيت رجلا طويلا ، نحيلا ، يرتدى وشاحا أحمر ، وقد راح

يجلس وهو يطوى وشاحه بعناية . لقد كان النائب العام . ثم صاح الحاجب يعلن المحكمة . وفى نفس اللحظة بدأت مروحتان كبيرتان فى العمل . ودخل ثلاثة من القضاة : اثنان فى ثياب سوداء والثالث يضع وشاحا أحمر ، وكانوا يحملون ملفات كثيرة ، وتوجهوا بسرعة إلى المنصة التى على القاعة . جلس القاضى صاحب الوشاح الأحمر على مقعد الوسط ، ووضع قلنسوته أمامه، وراح يمسح رأسه الصغير الأصلع بمنديله ، ثم أعلن افتتاح الجلسة. كان الصحفيون قد أمسكوا بأقلامهم ، وعلى وجوههم بدت علامات اللامبالاة والقليل من السخرية ، ولكن واحدًا منهم شابا يرتدى ثياباً رمادية ورباط عنق أزرق ، كان قد ترك قلمه وراح ينظر إلى، ولم أكن أرى من وجهه أكثر من عينين صافيتين تتفحصاننى فى تمهل ودون أن يبدو عليه أية تعبيرات أخرى .عندها أحسست بشعور عجيب، لقد كنت كمن ينظر إلى نفسه . وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله لم أفهم جيدا ماحدث فيما بعد ، وربما أيضا لأننى لم أكن أعرف المتبع فى ذلك المكان : عملية القرعة لاختيار المحلفين ، ثم قراءة سريعة للائحة الاتهام ، حيث تعرفت على بعض الأسماء والأماكن والأشخاص ، ثم أسئلة أخرى إلى المحامى .

ثم طلب الرئيس استدعاء الشهود ، فقرأ أمين السر بعض الأسماء التى أثارت انتباهى ، فمن بين ذلك الجمهور المجهول ، رأيت مدير دار المسنين ، وحارس الدار ، وتوماس بيريز العجوز ، وريمون ، وماسو ، وسالامانو، ومارى ، كانوا يقفون الواحد بعد الآخر ، ويختفون خلف أحد الأبواب الجانبية . وقد أشارت لى مارى إشارة قلقة غامضة . ولازلت أشعر بالدهشة ؛ لأننى لم ألاحظ كل هؤلاء من قبل ، وعندما نودى على الاسم

الأخير ، رأيت سيليست يقف ، وإلى جانبه ، تعرفت على المرأة التى كنت قد رأيتها بالمطعم بمعطفها ، وهيئتها الواثقة المحددة ، وكانت تحدق فى وجهى ، ولم يكن لدى متسع من الوقت للتفكير ؛ لأن الرئيس راح يتكلم فقال : إن المناقشه ستبدأ ، وإنه يطلب إلى الحضور التحلى بالهدوء ، وإنه هنا لكى يدير - فى حياد تام - المناقشات الخاصة بتلك القضية والتى يريد لها أن تكون مناقشات موضوعية ، وإن القرار الذى سيؤخذ بواسطة هيئة المحلفين سيكون قائما على أساس من العدل ، وإنه ـ على كل حال ـ سوف يأمر بإخلاء القاعة إذا حدث مايخل بالنظام .

بدأت الحرارة ترتفع ، حتى إن الكثير من الحضور بالقاعة كانوا يجلبون الهواء إلى وجوههم بتحريك الجرائد أمامها ، وكان ذلك يحدث نوعا خافتا من الضوضاء الورقية المستمرة . أعطى الرئيس إشارة إلى الحاجب الذى أسرع بإحضار ثلاث قطع من ورق النخيل المجدول تستعمل للتهوية ، وراح القضاة الثلاثة فى استخدامها على الفور .

ثم بدا الاستجواب . ولقد راح الرئيس يسألنى فى هدوء بل وفى شىء من الرقة سألونى مرة أخرى عن شخصيتى ، ورغم الملل الذى شعرت به ، فإننى كنت أعتقد - فى الواقع - أن ذلك أمر طبيعى ؛ لأنه سيكون من الخطورة بمكان أن نحاكم شخصا على أنه شخص آخر ، ثم راح الرئيس يسرد الوقائع التى كنت قد فعلتها ، وهو يسألنى بعد كل ثلاث جمل : «أليس كذلك ؟ » وفى كل مرة كنت أجيب : «نعم ياسيدى الرئيس . » طبقا لتعليمات المحامى ، وقد استغرق ذلك وقتا طويلا ؛ لأن الرئيس كان يصر على ذكر كل الدقائق والتفاصيل فى روايته . وأثناء كل ذلك كان الصحفيون يكتبون ، وكنت أحس بنظرات ذلك الصحفى الشاب وتلك المرأة الآلية .

كان كل الجالسين - على أريكة الترام - قد استداروا ناحية الرئيس . الذى تنحنح قليلا ، وقلب فى ملفاته ثم تحول ناحيتى وهو يروح عن وجهه، ثم قال : إنه سيبدأ فى طرق بعض المواضيع التى قد تكون ظاهريا بعيدة عن قضيتى ، ولكنها - فى واقع الأمر - ذات صلة قوية بها، فأحسست أنه سوف يتحدث من جديد عن أمى ، وأحسست فى نفس الوقت بالكثير من الملل من جراء ذلك . سألنى : لماذا أودعت أمى دار المسنين ؟فقلت : لأننى لم أكن أمتلك مايكفى من المال لإعاشتها وعلاجها ، فسألنى إن كنت قد قاسيت شخصيا نتيجه لذلك ، فقلت : لم تكن أمى تنتظر شيئا منى ، ولم أكن أنتظر شيئا منها، ولم نكن -نحن الاثنين - ننتظر شيئا من أى إنسان آخر ، وكان كل منا قد تعود على حياته الجديدة ، فقال الرئيس - حينئذ - : إنه لايريد التركيز على تلك النقطة ، وطلب إلى النائب العام إذا كانت لديه أسئلة أخرى يريد أن يطرحها على .

كان ذلك الأخير يدير جزءا من ظهره ناحيتى ، ودون أن ينظر إلى ، قال إنه ـ بعد إذن الرئيس ـ يريد أن يعرف إذا ما كنت قد عدت إلى النبع وحيدا وفى نيتى أن أقتل العربى ، فقلت : « لا . » فقال : « إذن ، لماذا كنت مسلحا ؟ ولماذا عدت إلى ذلك المكان بالتحديد ؟ » فقلت : « كان ذلك بمحض الصدفة . » فقال : « سأكتفى الآن بهذا القدر . » ولم أفهم كثيرا مما حدث فيما بعد ، إلى أن أعلن رفع الجلسة واستئنافها بعد الظهر لسماع الشهود .

ولم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير ؛ فقد قادونى إلى عربة المساجين، وبها ذهبنا إلى السجن ، حيث تناولت الطعام ، ثم أحسست بالتعب ، وبعد وقت قليل أخذونى من جديد، وبدأت نفس الإجراءات ،

ووجدت نفسى فى نفس القاعة وأمام نفس الوجوه . الاختلاف الوحيد هو أن الحرارة كانت أشد ، وأن كل واحد من المحلفين والنائب العام والمحامى وبعض الصحفيين كانوا يحملون مراوح من القش للترويح عن أنفسهم ، أما الصحفى الشاب والمرأة الآلية فلا زالا هناك ينظران إلى » .

مسحت العرق الذى كان يغطى وجهى ، ولم أشعر بنفسى أو بالمكان إلا عندما سمعتهم ينادون على مدير دار المسنين . سألوه عما إذا كانت أمى قد تعودت أن تشكو منى ، فقال : نعم ، ولكنها أيضا عادة من عادات هؤلاء النزلاء ؛ فهم عادة ما يشكون أقاربهم ، فسأله الرئيس أن يوضح بدقة إذا ما كانت أمى قد عتبت على لوضعها فى تلك الدار ، فقال : نعم ، ولكنه فى تلك المرة لم يضف شيئا . وردا على سؤال آخر قال : إنه فوجىء بالهدوء الذى كنت عليه يوم دفنها ، فسأله عما يعنيه بالهدوء ، فأطرق الرجل برأسه ناظرا إلى حذائه وقال : إننى لم أشأ رؤية أمى ، وإننى لم أبك ولو مرة واحدة ، وإننى رحلت فورا بعد الدفن دون أن أجثو قليلا على قبرها . وأضاف أن هناك شيئا آخر قد أدهشه : أن أحد عمال الدفن قد قال : إننى لا أعرف سن أمى . وبعد فترة من الصمت ، سأله الرئيس عما إذا كان يعنينى بكل تلك الأقوال ، وعندما لم يفهم المدير مايعنيه قال له الرئيس : «إن ذلك هو القانون » ثم توجه الرئيس إلى النائب العام ، سائلا إياه إن كانت لديه أسئلة يريد أن يطرحها على الشاهد ، فقال : « لا ، إن فى هذا الكفاية . » قالها وهو يرمينى بنظرة منتصرة ، حتى إننى - ولأول مرة منذ سنوات طويلة - شعرت بالرغبة البلهاء فى البكاء ؛ لأننى أحسست ساعتها كم كنت ممقوتا من قِبَلِ كل هؤلاء الناس .

وبعد أن طلب الرئيس إلى المحلفين وإلى المحامى إذا كانت لديهم أية

أسئلة ، راح الرئيس يستمع إلى الحارس ، وقد حدثت معه نفس المراسم التى حدثت بعد ذلك مع كل الآخرين . لدى وصوله ، نظر الحارس إلى ، ثم أشاح عنى ببصره ، وردا على الأسئلة التى وجهت إليه ، قال الرجل : إننى لم أرغب فى رؤية أمى ، وإننى دخنت السجائر ، وإننى نمت ، وتناولت قهوة باللبن . عند ذلك أحسست وكأن شيئا قد أثار جميع الحاضرين، وللمرة الأولى فهمت أنني مذنب . وقد طلب إلى الحارس أن يعيد قصة القهوة باللبن والسجائر . ونظر إلى النائب العام نظرة تفيض بالتهكم . وفى تلك اللحظة سأل المحامى الحارس عما إذا لم يكن قد دخن بصحبتى ، ولكن وكيل النائب العام ثار على ذلك السؤال فى عنف وقال : « من هو المجرم هنا ؟ وما هى تلك الأسئلة التى تحاول التعريض بشهود الاتهام للتقليل من شأن شهاداتهم التى تظل مع ذلك قوية الحجة ؟! » ورغم هذا طلب الرئيس إلى الحارس أن يرد على السؤال ، فأجاب العجوز فى خجل : « أنا أدرك تماما أننى كنت مخطئا ، ولكننى لم أجرؤ على رفض السيجارة التى قدمها لى ذلك السيد . وفى الختام ، سألونى إن كان لدى شيء أريد أن أضيفه فقلت : « لا شىء ، والشاهد على حق ، لقد قدمت له سيجارة ، وعندها نظر إلى الحارس بقليل من الدهشة ونوع من العرفان بالجميل، وتردد قليلا ثم قال : إنه هو الذى قدم إلى القهوة باللبن . فانشرح المحامى لذلك الانتصار وقال : إن المحلفين سيضعون ذلك فى حسبانهم ، ولكن النائب العام صاح قائلا : « نعم ، سيضع السادة المحلفون ذلك فى حسبانهم ، وسوف ينتهون إلى أن الغريب قد يقدم القهوة، ولكن على الابن أن يرفضها أمام جثمان تلك التى جاءت به إلى الحياة » ثم عاد الحارس إلى مكانه . عندما جاء دور توماس بيريز ، قام

الحاجب بمساعدته للوصول إلى المنصة ، وقال بيريز : إنه كان يعرف، أمى ، وإنه لم يرنى سوى مرة واحدة فى يوم الدفن ، فسألوه عما رآه منى فى ذلك اليوم، فأجاب « أنا نفسى كنت حزينا ، فلم أر شيئا ، لقد كان الحزن هو الذى حجب عنى الرؤية ؛ فقد كان حزنا عميقا ، حتى إننى قد سقطت مغشيا على ، فلم أر ذلك السيد . » فسأله النائب عما إذا كان قد رآنى باكيا على الأقل ، فرد بيريز بالنفى ، فعقب النائب قائلا : « السادة المحلفون سيضعون ذلك فى حسبانهم » ولكن المحامى غضب وسأل بيريز فى لهجة عنيفة : « عما إذا كان قد رآنى غير باكٍ » فقال : « لا . » وعندها ضحك الحاضرون ، فقال المحامى وهو يشمر أحد أكمامه : « ها قد رأيتم طبيعة الاستجواب ، كل شىء صحيح ، ولا شىء صحيح ! » وبدا النائب العام متجهما وهو يعبث بأحد الأقلام فى ملفاته .

تم تعليق الجلسة لمدة خمس دقائق ، قال خلالها المحامى : إذ كل شىء يسير نحو الأفضل ، ثم سمعنا سيليست الذى كان قد جاء اسمه على لسان الدفاع ، والدفاع هو أنا ، كان سيليست يلقى بنظرات فى اتجاهى من وقت لآخر ويدير قبعة خفيفة بين يديه ، وكان يرتدى حلته الجديدة التى كان يرتديها للذهاب معى - فى بعض أيام الآحاد - إلى سباقات الخيول . وأعتقد أنه لم يستطع تثبيت الياقة ؛ لأنه كان يضع زرارا من النحاس للحفاظ على قميصه مقفولا . سألوه إن كنت زبونا لديه . فقال : « نعم ، وهو أيضا صديقى » وعن رأيه فى ، فأجاب بأننى رجل حقيقى . وماذا يعنيه بذلك ، فقال : إن كل الناس تعرف ماذا يعنى ذلك . وعما إذا كان قد لاحظ أننى شخص منغلق على نفسه ، فاعترف فقط بأننى لا أتحدث دون داع ، فسأله وكيل النائب العام عما إذا كنت أدفع حساباتى بانتظام ،

فضحك سيليست وقال : « إن ذلك شيء بسيط بيننا » فسألوه عما يراه فى جريمتى ، وعندها وضع يديه على الحاجز الذى أمامه ، وبدا وكأنه قد أعد شيئا لهذه المناسبة ، فقد راح يقول : « إنها كارثة . كل الناس يعرفون ما هى الكارثة . فعندما يصبح الإنسان دون دفاع . إنها كارثة » وبدا وكأنه يريد أن يستمر على ذلك المنوال ، ولكن الرئيس قال له : إن هذا يكفى وإنه يشكره. حينئذ وقف سيليست حائرا ، ولكنه أعرب عن رغبته فى مواصلة الحديث ، فطلبوا إليه أن يوجز ، فراح يكرر أن تلك الحادثة تعتبر كارثة ، فقال له الرئيس : «نعم . لقد سمعنا ، ونحن هنا للحكم على ذلك النوع من الكوارث ، ونحن نشكرك » وحيث إن سيليست كان بذلك قد وصل إلى نهاية ما يستطيعه وما يمكنه عمله ، فقد استدار ناحيتى ، وبدا وكأن عينيه تلمعان وشفتيه ترتعدان ، كان يبدو وكأنه يريد أن يسألنى عما يستطيع أن يضيفه ، فلم أقل شيئا ، ولم أفعل شيئا ، ولكنها كانت المرة الأولى فى حياتى التى أردت فيها أن أقبل أحد الرجال . وقد طلب إليه الرئيس مرة أخرى أن يغادر المنصة ، فغادرها إلى القاعة ، وظل طول الجلسة فى مكانه منحنيا إلى الأمام، متكئا بمرفقيه على ركبتيه ، وقبعته بين يديه ، ثم دخلت مارى . كانت تلبس قبعة ، وكانت لاتزالى جميلة ، ولكننى كنت أفضلها وشعورها حرة تتراقص فى الهواء . كانت تبدو فى غاية القلق والضيق ، وسألوها - فى الحال - منذ متى كانت علاقتها بى ، فقالت : إنها كانت صديقتى ، وردا على سؤال آخر قالت : إنها كانت ستتزوجنى ، وفجأة سألها النائب العام - الذى كان يتصفح أحد الملفات - عن التاريخ الذى بدأت فيه علاقتنا ، فأوضحت التاريخ، فأشار النائب - دون اهتمام - إلى أن ذلك هو اليوم التالى لوفاة أمى، ثم أضاف فى شيء من الدعابة أنه لا يريد أن يطيل

الحديث عن ذلك الموقف الحساس ، وأنه يتفهم جيدا شعور مارى ، ولكن - وهنا بدت على لهجته القسوة - واجبه يملى عليه التسامى فوق تلك الاعتبارات . وبناءً على ذلك ، فقد طلب إلى مارى أن تلخص وقائع ذلك اليوم الذى لقيتها فيه ، ولم تشأ مارى أن تتكلم ، ولكن أمام إلحاح النائب ، روت موضوع الاستحمام ، وخروجنا إلى السينما ، وعودتنا إلى شقتى ، فقال : إنه على أثر الاطلاع على أقوال مارى أمام النيابة ، قام بتفحص برنامج السينما فى ذلك التاريخ ، وأضاف أن مارى نفسها ستذكر أى الأفلام كانت تعرض فى ذلك الوقت ، فأوضحت مارى - فى لهجة بريئة - أنه كان فيلما للممثل الكوميدى فرنانديل . عندما انتهت من حديثها كان الصمت الرهيب قد خيم على القاعة . حين ذلك نهض النائب العام فى وقار - وبصوت وجدته أنا نفسى مؤثرا - راح يقول ببطء وهو يشير ناحيتى : «ياحضرات المحلفين ، فى اليوم التالى لوفاة أمه ، يذهب هذا الرجل للاستحمام مع إحدى الفتيات ، ويبدأ معها علاقة غير شرعية ، ثم يذهب للضحك أمام أحد الأفلام الكوميدية ، وليس لدى شىء آخر أقوله لكم» ثم جلس ، والصمت لايزال يلف المكان ، ولكن مارى انخرطت فجأة فى البكاء ، وقالت : إن ذلك ليس صحيحا ، وإن هناك شيئاً آخر ، وإنها تعرفنى جيدا ، وإننى لم أفعل شيئا يستحق العقاب ، ولكن الحاجب جذبها بعيدا - بناء على أوامر الرئيس - واستمرت الجلسة .

بعد ذلك تم سماع شهادة ماسو على عجل . وقد قال : « إننى رجل أمين ، وإنه سيضيف إلى ذلك أننى رجل شهم » وفى عجلة أيضا تم سماع سالامانو ، فأكد أننى كنت طيبا مع كلبه . وعندما سألوه عن رأيه فيما قلته من أنه لم يكن لدى المزيد مما أستطيع أن أقوله لأمى ، وأننى قد أودعتها دار

المسنين لهذا السبب أجاب : « يجب أن نفهم ذلك ، يجب أن نفهم » ولكن يبدو أن أحد من الحاضرين لم يفهم شيئا من تلك الإجابة .

ثم جاء دور ريمون ، وكان الشاهد الأخير ، فى البداية أشار إلىّ ريمون بالتحية ، ثم قال فى الحال : إننى برىء، ولكن الرئيس لفت نظره إلى أنهم لايطلبون تقديراته ، ولكنهم يريدون الوقائع ، .ودعاه إلى انتظار الأسئلة والاكتفاء بالإجابة عنها فقط ، ثم طلبوا إليه إيضاح حقيقة علاقاته بالمجنى عليه ، فانتهز ريمون تلك الفرصة وقال : إن المجنى عليه كان يناصبه - هو - العداء منذ أن صفع أخته ، فسأله الرئيس عما إذا كانت هناك أية أسباب قد يكرهنى المجنى عليه من أجلها ، فقال ريمون : إن وجودى على الشاطىء كان بمحض الصدفة . عند ذلك سأله النائب العام كيف أمكن أن يكون الخطاب الذى كان سببا فى تلك المأساة قد تمت كتابته بواسطتي أنا؟ فأجاب ريمون : إن ذلك كان بمحض الصدفة ، فقال النائب : يبدو أن الصدفة - فى ذلك الموضوع - كان لها الكثير من الآثار السيئة على الضمير ، ثم سأله عما إذا كانت الصدفة أيضا هى التى منعتنى من التدخل عندما صفع ريمون عشيقته ، وعما إذا كانت الصدفة هى التى جعلتنى أشهد فى قسم البوليس ، وعما إذا كانت الصدفة كذلك هى التى جعلت كل أقوالى أثناء تلك الشهادة لاتعدو كونها انحيازا كاملا . وفى النهاية سأله عن موارده التى يعيش منها ، فأجابه ريمون بأنه « بائع فى أحد المحلات » وعندها صرح النائب العام للمحلفين بأنه قد علم من مصادر عديدة مشهورة أن الشاهد يمارس مهنة « وسيط نساء » وأننى متواطىء معه وصديق له ، وأننا أمام مأساة خسيسة ومن أشد أنواع المآسى انحطاطا، ويزيد من خستها وانحطاطها أننا أمام مجرم وحشى الضمير ، وقد أراد ريمون أن

يدافع عن نفسه ، وأراد المحامى أن يحتج ، ولكن الرئيس طلب إليهما أن يدعا النائب يكمل حديثه ، فقال الأخير - وهو ينظر إلى ريمون- : « ليس لدى سوى القليل أريد إضافته ؟ هل كان ذلك الرجل صديقك ؟ » فقال ريمون : «نعم ، لقد كان صديقى » فسألنى نفس السؤال ، فنظرت ناحية ريمون وقلت : « نعم » فاستدار بعد ذلك ناحية المحلفين وقال : «ها هو نفس الرجل الذى ارتكب كل الفضائح فى اليوم التالى لوفاة أمه يرتكب جريمة قتل لأسباب واهية ؛ لينهى به موضوعا أخلاقيا منحطا » .

ثم جلس ، ولكن المحامى ، الذى كان قد نفد صبره ، راح يصيح وهو يرفع ذراعيه - حتى ظهرت أكمام قميصه المنشاة - وهو يقول : « ماهذا ؟ هل هو متهم بدفن أمه أم بقتل أحد الرجال ؟ » فضحك الحاضرون ، ولكن النائب العام وقف ثانية ، وأحكم لف الوشاح من حوله ،وقال : إن طيبة قلب الدفاع المحترم هى التى منعته من الإحساس بأن هناك علاقة مهمة وقوية ومؤثرة بين هاتين الحادثتين ، ثم صاح بقوة : « نعم ، أنا أتهم ذلك الرجل بأنه دفن أمه بقلب مجرم » . وقد بدا أن ذلك التصريح قد ترك أثرا عميقا لدى الحاضرين . هز المحامى كتفيه ،وراح يمسح العرق الذى تصبب فوق وجهه ، ولكنه - هو نفسه - كان يبدو منزعجا ، وعندها فهمت أن أمورى لاتسير على مايرام .

ثم رفعت الجلسة . وعند الخروج من المحكمة إلى العربة ، أحسست للحظة قصيرة بلون ورائحة أمسيات الصيف ، وبعد ذلك ،وداخل ظلمة الزنزانة ، تذكرت - من أعماقى المتعبة - الواحد تلو الآخر من تلك الضوضاء المألوفة للمدينة التى كنت قد أحببتها عندما كنت سعيدا . تذكرت صيحات بائعى الصحف فى الهواء الطلق ، عصافير آخر النهار فوق

أشجار الميدان ، أصوات بائعى السندوتشات ، فرامل الترام فوق المرتفعات ، ولون السماء قبل أن يهبط الليل فوق الميناء ، كل ذلك كان يمثل بالنسبة لى طريقا محفوظا كطريق العميان ، طريقا كنت أعرفه جيدا قبل دخولى إلى السجن ، نعم لقد كانت تلك الساعة ، هى التى كنت أشعر فيها بالسعادة . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد . وبعدها لم يكن ينتظرنى سوى نوم هادىء خالٍ من الأحلام . وعلى الرغم من كل ذلك فإن هناك شيئا قد حدث ؛ لأن انتظار الأيام السعيدة قد أدى بى إلى الزنزانة ، وكأن الطرق المحببة المحفورة فى سماء ليالى الصيف يمكن أن تقودنا إلى السجون مثلما تقودنا إلى النوم الهادىء البرىء .


الجزء الرابع

4

إنه دائما شيء مثير ، أن يسمع الإنسان من يتحدث عنه ، حتى ولو كان جالسا فى مقعد المتهم : فأثناء مرافعات النائب العام والمحامى أستطيع أن أقول : إنهم قد تحدثوا عنى كثيرا ، بل ربما كان حديثهم عنى قد فاق حديثهم عن جريمتى ، ولكن هل كانت كل تلك المرافعات بالفعل مختلفة عن بعضها البعض ؟ لقد كان المحامى يرفع ذراعيه ويقول : إننى مذنب ولكن بعذر ، فيما كان النائب العام يمد يده ويشجب تلك الجريمة عديمة الأعذار . ولقد كان هناك شيء يزعجنى : فبالرغم من همومى ، كنت فى بعض الأحيان أحاول التدخل ، ولكن المحامى كان حنيئذ يقول : «اصمت، فإن ذلك أفضل لك . » وبمعنى آخر فإنه قد بدا وكأنهم يعالجون تلك القضية بدونى . كل شيء كان يجرى دون تدخل من جانبى ، ومصيرى كان يتقرر دون أن يأخذوا رأيى . ومن وقت لآخر ، كانت تحضرنى الرغبة فى مقاطعة كل الحضور لكى أقول : « ماهذا ؟ من هو المتهم هنا ؟ إن المتهم شخص مهم فى القضية ، ثم إن لدى شيئا أريد أن أقوله . » ولكن بعد قليل من التفكير، كنت أتوصل إلى أنه لايوجد لدى ما أقوله ، كما أننى يجب أن أعترف أن المزية التى قد يجدها البعض فى تلك المرافعات – هى أنها تملأ أوقات الفراغ – حتى هذه المزية لا تستمر وقتا طويلا ؛ فمرافعات النائب العام – مثلا – قد

أصابتنى بالملل السريع ، فلم يكن بها سوى بعض الأجزاء أو الحركات أو الجمل القوية المنظومة التى أثارت اهتمامى .

وكانت نظريته - إذا كنت قد فهمته جيدا - تقول على : إننى قد دبرت لجريمتى . وقد حاول - جاهدا - أن يثبت ذلك ، كما كان قد قال بنفسه : « سوف أقدم لكم الدليل أيها السادة ، بداية بفضل الوقائع الدامغة الجلية، ثم بعد ذلك بفضل الضوء الخافت الذى سيقدمه التحليل النفسى لتلك الروح المجرمة . » ثم لخص الوقائع منذ موت أمى ، وذكر بعدم تأثرى يوم دفنها ، وجهلى بحقيقة سنها ، واستحمامى مع فتاة فى اليوم التالى ، وذهابنا إلى السينما ، وفيلم فرنانديل ،وأخيرًا عودتى مع مارى إلى البيت . ولقد بذلت وقتا - حينئذ - حتى فهمته ؛ لأنه كان يقول عشيقته . وبالنسبة لى فإنها لم تكن سوى مارى فقط . وبعد ذلك عرج على قصة ريمون . ولقد وجدت أن رؤيته للأحداث لم يكن ينقصها الوضوح ، بل إن ما يقوله كان معقولا : لقد كتبت الخطاب مع ريمون لاستدراج عشيقته وتعريضها للمعاملة المهينة من جانب رجل « مشبوه الأخلاق » . ولقد تحرشت بأعداء ريمون على الشاطىء ، مما أدى إلى أصابة الأخير بجراح . فطلبت إليه مسدسه ، وعدت وحيدا لاستخدامه ، ولقد قتلت العربى كما دبرت ، وانتظرت حتى تأكدت من إن العملية قد انتهت ، فأطلقت أربع طلقات أخرى فى هدوء وثقة وبعد تفكير . ثم قال : « وهكذا ، أيها السادة، لقد ترسمت أمامكم مجرى الأحداث التى أدت بهذا الرجل إلى ارتكاب ذلك القتل المتعمد ، وأنا أكرر ذلك ، إنها ليست جريمة قتل عادية نتجت عن عمل غير محسوب أدت إليه الظروف الطارئة . إن هذا الرجل ، أيها السادة ، هذا الرجل ذكى . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ فهو يعرف

كيف يجيب ، ويعرف معنى الكلمات ؛ ولا أستطيع أن أقول : إنه قد فعل فعلته دون أن يدرى مافعله . »

لقد كنت أستمع ، وعرفت أنهم يعدوننى ذكيا ، ولكننى لم أفهم كيف يمكن أن تتحول مميزات الرجل البرىء إلى اتهامات دامغة ضد الرجل المذنب. ولقد كان ذلك - على ما أعتقد - هو ماصدمنى وجعلنى لا أواصل الاستماع إليه ، حتى سمعته يقول : وهل عبر - رغم ذلك - عن ندمه ؟ إطلاقا أيها السادة . لم يبد على ذلك الرجل - ولو مرة واحدة - أنه نادم على جريمته البشعة ، ثم استدار ناحيتى وأشار إلى بإصبعه وهو مستمر فى مهاجمتى دون أن أفهم السبب فى الواقع . ولاريب فى أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتراف بأنه كان على حق ، فلم أكن قد اعتذرت كثيرا عما فعلته ، ولكن ماكان يدهشنى هو كل ذلك التحامل من جانبه . لقد كنت أريد أن أشرح له فى لطف وحنان ، أننى فى الواقع لم أستطع فى حياتى كلها أن أعتذر عن شىء فعلته . لقد كنت دائما مشغولا ومهموما بما سيحدث ، باليوم أو بالغد ، ولكنني - بالطبع - وفى الحالة التى وضعونى فيها ، لم أكن أستطيع أن أتحدث إلى أى شخص بتلك الطريقة . لم يكن لدى الحق فى أن أبدو لطيفا طيبا أو حتى أن أظهر الرغبة فى ذلك .

ثم حاولت أن أستمع مجددا ؛ لأن النائب العام كان قد راح يتحدث عن روحى فقال : إنه قد حاول أن يتعرف عليها ، ولكنه لم يجد شيئا . وإننى - فى حقيقه الأمر - لا أمتلك روحا ، وليس لدى من الإنسانية شىء ، ولا أعرف واحدا فقط من المبادىء الأخلاقية التى توجد فى قلوب الرجال ، ثم أضاف : « ولاشك فى أننا لا نستطيع أن نعاتبه على ذلك ؛ فالذى لايستطيع أن يمتلكه - هو - لا يمكننا - نحن - أن نعاتبه على نقصه ؛ ولكن هنا -

أمام تلك المحكمة ـ فإن صفة التسامح يجب أن تفسح مكانها ، لما هو أسمى من ذلك وأهم ، ألا وهى العدالة ، خاصة إذا كان فراغ القلب - كما نجده عند ذلك الرجل - قد تحول إلى هاوية قد يسقط فيها المجتمع بأكمله. » ثم تحول إلى الحديث عن تصرفاتى تجاه أمى ، فكرر ما كان قد قاله أثناء المناقشة ، ولكنه أطال أكثر مما كان قد فعله عندما كان يتحدث عن جريمتى ، ثم توقف ، وبعد فترة صمت عاد إلى حديثه بصوت مؤثر : «إن نفس تلك المحكمة ـ ياسادة ـ سوف تقوم غداً بالفصل فى أبشع الجرائم على الإطلاق : جريمة ابن قتل أباه ، تلك الجريمة النكراء التى لايستطيع حتي الخيال أن يدرك مداها . » وأضاف أنه يتمنى أن تعاقب العدالة هؤلاء دون رحمة ، وأنه يستطيع أن يقول : إن الفزع الذى ولدته لديه تلك الجريمة يمكن مقارنته بما يشعر تجاه قسوتى ، فطبقا لما قاله ، فإن الرجل الذى يقتل أمه نفسيا يكون قد اعتدى على المجتمع البشرى ووضع نفسه فى خندق واحد مع ذلك الذى اعتدى بالقتل على من جاء به إلى تلك الحياة ؛ ففى الحالتين، فإن الاعتداء الأول يمهد الطريق أمام الاعتداء الثانى ، ويعلن عن قدومه ، بل ويبرره ، ثم أضاف وهو يرفع صوته : « إننى أشعر ـ أيها السادة ـ أنكم لن تجدوا فيما أقوله نوعا من المبالغة أو الجرأة ، إذا ماقلت : إن ذلك الرجل الجالس أمامكم يعد مذنبا بجريمة قتل تماثل تلك التى ستفصل فيها المحكمه فى الغد ، وإنه يجب معاقبته على هذا الأساس . » وهنا راح يمسح وجهه الذى كان يلمع بالعرق ثم قال - فى نهاية الأمر - إن عليه واجباً مؤلماً ، ولكنه سوف يكلمه بكل قوة ، وقال : إنه لاشأن لي ، وليس لى مكان فى مجتمع ، أنا فى جهل بكل مبادئه الأساسية ، وإننى لايمكن أن أعتمد على رحمة القلب الإنسانى ؛ لأننى أجهل حتى التصرفات

البدائية لذلك القلب الإنسانى ، ثم ختم حديثه قائلا : « وبناءً على ذلك ، فإنى أطالبكم برأس هذا الرجل ، أطالبكم برأسه وقلبى راضٍ عن ذلك ؛ لأنه إذا كان قد حدث لى خلال سنوات خدمتى الطويلة المطالبة بأحكام الإعدام ، فإننى لم أشعر على الإطلاق بمثل ما أشعر به اليوم ، من أن ذلك الواجب الصعب محق وعادل وناصع أمام الضمير الذى يأتمر بأوامر عليا مقدسة ، وأمام ذلك الرعب الذى أشعر به حيال ذلك الوجه البشرى الذى لا أجد به سوى كل ماهو قاسٍ ووحشى . »

عندما جلس النائب العام ، أعقب ذلك لحظات طويلة من الصمت . فيما كنت - أنا - أشعر بالدوار من جراء الحرارة الشديدة والدهشة المفاجئة . فبعد أن تنحنح الرئيس قليلاً ، سألنى بصوت خفيض ، إن كان لدى شىء أريد أن أضيفه ، فوقفت وحيث إنه كانت عندى - بالفعل - الرغبة فى الحديث ، فقد قلت ماكان يدور داخلى بالصدفة من أننى لم تكن لدى النية لقتل العربى ، فقال الرئيس : إن ذلك يعتبر تأكيدا ينقصه الدليل ، وإنه حتى تلك اللحظة لايستطيع أن يفهم طريقتى فى الدفاع ، وإنه سيكون سعيدا - قبل أن يشرع فى سماع المحامى - أن أوضح له الدوافع التى كانت وراء ذلك العمل ، فقلت بسرعة ، والكلمات تخرج متشابكة وأنا أشعر بمدى سخف ما أقول : إن ذلك قد حدث بسبب الشمس . على إثر ذلك حدث ضحك بالقاعة ، وهز المحامى كتفيه ، وبعد ذلك بدأ يتكلم . فقال : إن الوقت قد تأخر ، وإنه سيتحدث لساعات طويلة ، وإنه يطلب تأجيل الجلسه إلى ما بعد الظهر ، ووافقت المحكمة على طلبه .

بعد الظهر ، كانت المراوح الكهربائية لازالت تحاول تحريك هواء القاعة الثقيل ، فيما كانت مراوح اليد الملونة تهتز بين أيدى المحلفين ، فى نفس

الاتجاه ، وقد تحدث المحامى طويلا حتى إنه قد بدا لى أن مرافعاته لن تنتهى على الإطلاق . ومع ذلك ، ففى لحظة معينة استمعت إليه ؛ لأنه كان يقول عن نفسه : « صحيح أننى قتلت . » وراح يكمل الحديث وهو يقول « أنا » فى كل مرة كان يتحدث فيها عنى . ولقد كنت مندهشا جدا ، فانحنيت ناحية رجل البوليس وسألته عن ذلك ، فأمرنى أن أصمت ، وبعد لحظة أضاف : كل المحامين يفعلون ذلك . «أما أنا ، فقد اعتقدت أن ذلك كان لإبعادى أكثر فأكثر عن القضية ، أى لتحويلى إلى صفر كبير ، أو بمعنى أدق لكى يحل هو محلى أنا . على كل حال ، لقد كنت – فى الواقع – بعيدا جدا عما كان يحدث فى تلك القاعة ، كما أن المحامى بدا لى سخيفـا ؛ فقد راح بسرعة يتحدث عن الاستفزاز ، ثم عرج هو الآخر على روحى ، ولكنه بدا لى أقل مهارة من وكيل النائب العام ؛ فقد قال : « وأنا أيضا حاولت التعرف على تلك الروح ، ولكن على العكس تماما من السيد وكيل النائب العام فإننى قد وجدت شيئا ، وأستطيع أن أقول : إننى كنت أقرأ فيه كالكتاب المفتوح ، كان قد قرأ – على حد قوله – أننى رجل أمين ، أعمل فى انتظام، وفى غير ملل أوكلل ، ومخلص للمكان الذى أعمل فيه ، ومحبوب مـن الجميع ،ومشارك فى مصائب الآخرين ،كما أننى كنت – من وجهة نظره – مثالاً للابن البار الذى ساعد أمه قدر استطاعته ، وفى النهاية فإننى ـ طبقاً لما قاله ـ كنت أتمنى أن تجد أمى العجوز – فى دار المسنين – الراحة التى لم تكن مواردى المحدودة تسمح لى بتوفيرها لها » ، ثم أضاف : «وأنا مندهش، أيها السادة ، إننا أثرنا كل تلك الضوضاء حول تلك الدار ؛ لأننا إذا أردنا دليلا على منفعة وعظمة تلك المؤسسات ، فإنه يجب ألا ننسى أن الدولة نفسها هى التى تمولها . » ولكنه لم يتحدث عن يوم الدفن . ولكن

نظرا لكل تلك الجمل الطويلة ، وكل تلك الأيام والساعات التى لاتنتهى والتى تحدثوا فيها عن روحى ، أحسست وكأن كل شىء قد صار عديم اللون كالماء ، مما كان يصيبنى بالدوار .

فى النهايه ، فإننى أذكر والمحامى مستمر فى دفاعه ـ أن صوت طبلة بائع الجيلاتى فى الخارج كانت تصل إلى سمعى عبر كل تلك الصالات والقاعات ، كان رأسى ممتلئا بالذكريات ، ذكريات تلك الحياة التى لم تعد حياتى ، والتى كنت أجد فيها أفراحى الكبيرة منها والصغيرة : روائح الصيف الحارة التى أحببتها ، السماء فى الليل ، ضحكات مارى وفساتينها . عند ذلك أحسست أن ما أفعله من أشياء عديمة النفع فى تلك القاعة يصيبنى بالإحباط . ، فشعرت بالرغبة فى البكاء ، ورحت أتمنى أن يسرعوا فى الانتهاء ، وأن أعود إلى زنزانتى لأجد النوم . بعد ذلك بقليل سمعت المحامى وهو يصيح قائلا : إن المحلفين لن يرسلوا إلى الموت ذلك العامل المجد الأمين الذى تسببت دقيقة واحدة من الغشاوة فى ضياعه ، ثم طلب اعتبار أن هناك ظروفا يجب أن تؤخذ فى الحسبان لتلك الجريمة التى سأتحمل إلى الأبد عذابها الأكيد ، ألا وهو تأنيب الضمير الأبدى .

بعد ذلك رفعت الجلسة ، فى حين تهالك المحامى فوق مقعده ، وأقبل عليه زملاؤه يهنئونه ويشدون على يده ، وقال له أحدهم : « كنت رائعا ، ياعزيزى . » بل إن أحدهم أرادنى شاهدا فقال لى : « هيه ، أليس كذلك؟ » فوافقته ، ولكننى لم أكن مخلصا ؛ فقد كنت متعبا .

بالرغم من ذلك ، كان الوقت قد تقدم ، والحرارة قد هدأت . وعن طريق الضوضاء التى كانت تصلنى من الخارج ، رحت أخمن مدى الليل الذى أقبل . لقد كنا هنا جميعا ننتظر ، وكل ماكنا ننتظره جميعا ، لم يكن

يخص أحدًا سواى . نظرت إلى القاعة مرة أخرى . كانت فى حالتها التى كانت عليها فى اليوم الأول . وتلاقت نظراتى بنظرات الصحفى الشاب ، ذى الحله الرمادية ، وبنظرات المرأة الآلية . وقد جعلنى ذلك أكتشف أننى لم أبحث بنظراتى عن مارى طوال القضية . لم أكن قد نسيتها ، ولكن كان لدى الكثير من الهموم ، وهأنا ذا أراها بين سيليست وريمون - أشارت إلى وكأنها تقول : « هاهى ذى النهاية . » ورأيتها تبتسم رغم القلق البادى عليها . ولكن قلبى كان مثقلا وحزينا ، فلم أرد حتى على ابتسامتها .

عادت المحكمة إلى الانعقا د ، ثم قرأ على المحلفون مجموعة من الأسئلة منها « مذنب » . . . « قتل عمد » . . . « ظروف مخففة » . ثم خرج المحلفون من جديد ، ثم اقتادونى إلى الحجرة الصغيرة التى انتظرت فيها من قبل . وهناك جاءنى المحامى : تحدث إلى بكثير من الثقة والرقة ، الأمر الذى لم يفعله من قبل . كان لايزال يعتقد أن كل شىء سيكون على مايرام . وأننى فقط سوف أقضى بعض السنوات فى السجن أو فى الأشغال الشاقة ، فسألته عما إذا كانت هناك أية فرصة للنقض فى حالة صدور أى حكم غير موافق ، فأجاب بالنفى ، وشرح لى أننا لا نستطيع أن ننقض أى حكم ، هكذا وبدون داع ، وقد بدا لى أن ذلك منطقي ، فوافقته على ذلك . وإذا مانظرنا - ببرود- إلى الأمر ، فقد كان ذلك طبيعيا أيضا ، أما فى حالة النقض فإن ذلك سيقودنا إلى كثير من الأوراق والإجراءات عديمة الجدوى ، ثم قال : « على كل حال ، فإن هناك الالتماس بالعفو ، ولكننى أعتقد أن الخاتمة ستكون مناسبة . »

انتظرنا وقتا طويلاً جداً ، مايقرب من ثلاثة أرباع الساعة على ما أعتقد . وفى النهاية دق أحد الأجراس ، فغادرنى المحامى وهو يقول : « رئيس

المحلفين سوف يقرأ الإجابات ، ولن يتم إدخالك إلا عند النطق بالحكم . »
وبعدها سمعت أصوات أبواب تغلق ، وأشخاص يهرولون فوق السلالم ، ولم أكن أدرى أقريبون هم أم بعيدون ، ثم سمعت صوتا مكتوما يقرأ شيئا داخل القاعة ، وعندما دق الجرس من جديد ، وفتح الباب ليدخلونى إلى القاعة ،كان الصمت هو الذى قابلنى ، الصمت ، وذلك الإحساس العجيب الذى شعرت به حينما وجدت أن الصحفى الشاب لم يعد ينظر باحيتى . ولم أنظر - أنا - ناحية مارى . لم يكن لدى الوقت ؛ لأن الرئيس قد قال لى عبارة عجيبة مفادها أنهم سوف يطيحون برأسى فى أحد الميادين العامة باسم الشعب الفرنسى .

عند ذلك أحسست أننى أعرف الشعور المرسوم فوق تلك الوجوه . وأعتقد أنه كان شعورًا بالتقدير . رجلا البوليس ترفقا بى كثيرا ، والمحامى وضع يده فوق يدى ، ولم أعد أفكر فى أى شىء ، ولكن الرئيس سألنى إن كنت أريد أن أضيف شيئا ، ففكرت ، ثم قلت : « لا . » وعندها أخذونى .

للمرة الثالثة ، رفضت استقبال القس ، فلم يكن لدى ما أقوله له ، وليس لدى الرغبة فى التحدث . إن كل ما يهمنى الآن ، هو أن أجد لنفسى مخرجا من ذلك المصير المحتوم . لقد نقلونى إلى زنزانة أخرى . ومن تلك الزنزانة ، عندما أكون ممدداً ، أستطيع أن أرى السماء ، ولا يمكننى أن أرى غيرها . فكنت أقضى أيامى فى النظر إلى موت الألوان فوق صفحتها ، الأمر الذى يقود النهار إلى الليل . كنت أقضى أيامى راقدا ويداى تحت رقبتى ، أنظر إلى السماء ، وأنتظر ، ولا أدرى كم عدد المرات التى سألت فيها نفسى عما إذا كانت هناك أمثلة لمحكوم عليهم بالإعدام ، استطاعوا أن يجدوا

لأنفسهم مخرجا من ذلك المصير : اختفوا - مثلا - قبل التنفيذ ، أو اخترقوا حواجز الامن . وحينئذ كنت أعاتب نفسى ؛ لأننى لم أكن أعطى اهتماما كبيرا لقصص الإعدام . من المفروض أن نهتم دائما بأمثال تلك المسائل؛ فنسنا ندرى على الإطلاق ماقد تجلبه لنا الأيام . مثل كل الناس كنت أقرأ عن تلك الأشياء فى الصحف ، ولكن - وبالتأكيد - فإن هناك مراجع متخصصة لم يدفعنى فضولى أبدا للاطلاع عليها . فى تلك المراجع - ربما - كنت سأجد قصصا للهروب ، وربما وجدت فى حالة من تلك الحالات - ولو حالة واحدة - أنه كان هناك مخرج ، وأن الطريق المفضى إلى الموت قد توقف ، وأن الصدفة أو الحظ ربما - ولو لمرة واحدة - قد غير شيئا من ذلك القدر المقسوم . مرة واحده كانت ستكفينى ! وكان قلبى سيتكفل بكل شىء بعد ذلك . كانت الصحف تتحدث دواما عن دين تجاه المجتمع ، وأنه يجب - طبقا لتلك الصحف - أن ندفعه ، ولكن ذلك كله لايثير الخيال؛ فالأمر الذى كنت أعتد به ، هو مجرد فرصة للإفلات ، قفزة محمومة خارج ذلك النطاق المحكم ، أو جرية مجنونة تعطى فرصة للأمل . وبالطبع فإن ذلك الأمل يتضمن قتلى بإحدى الرصاصات عند أحد المنعطفات أثناء الجرى . ولكن إذا وضعنا فى الاعتبار كل المعطيات ، فإنه حتى ذلك الأمل مستحيل . لاشىء يمكنه أن يسمح لى بمثل تلك الهبة . كل شىء يمنعنى من ذلك، والمصير المحتوم يبتلعنى .

ورغم نيتى الطيبة ، لم أكن أستطيع أن أتقبل تلك الحقيقة المهينة ؛ لأنه قد تبين لى ، أن هناك تنافرًا مضحكا بين الحكم الذى بنى على أساسه ذلك المصير وبين طريقة تنفيذه المحتومة . فكون الحكم قد تلى فى الساعة الثامنة بدلا من الخامسة ، وكونه لم يكن حكما مغايرا، وكونه قد صدر عن هؤلاء

الرجال وليس عن آخرين ، وكونه قد نسب إلى ذلك المفهوم الغامض ، كالشعب الفرنسى (أو حتى الألمانى او الصينى) ، فقد بدا لى أن كل ذلك يقلل كثيرا من جدية ذلك الحكم . وبالرغم من ذلك ، فلم يكن هناك بد من الاعتراف بأنه منذ اللحظة التى صدر فيها ذلك الحكم ، فإن آثاره قد أصبحت حقيقة واقعة وجادة تماما مثل حقيقة وجود ذلك الجراد الذى أرقد إلى جواره وأسحق جسدى بالضغط عليه .

فى تلك اللحظات ، تذكرت قصة كانت أمى قد روتها لى عن أبى . أبى الذى لم أكن قد عرفته . فكل ما كنت أعرفه بالتحديد عن ذلك الرجل ، ربما كان ذلك الذى روته أمى : كان قد ذهب - فى إحدى المرات - لرؤية إعدام أحد القتلة . كانت فكرة الذهاب تزعجه ، ولكنه ذهب رغم ذلك ، وعندما عاد ظل يتقيأ طوال اليوم ، ولم أفهم لماذا ، أما الآن فقد فهمت ، كيف لم أر أنه لا شىء يعادل فى أهميته عملية الإعدام ، وأن الموت - فى الحقيقة - هو الشىء الوحيد الأهم فى حياة الإنسان . وإذا حدث وخرجت من ذلك السجن فإننى سوف أذهب لرؤية كل الإعدامات ، وأعتقد أننى أخطأت ، لمجرد التفكير فى تلك الإمكانية ، إمكانية الخروج من السجن ؛ لأن خلف تلك الفكرة ، فكرة أن أرى نفسى ذات صباح - حرا طليقا - وراء صف من رجال الأمن ، أعنى فى الناحية الأخرى من ذلك الصف ، فكرة أن أكون متفرجا ليرى ، وعندما يعود يمكن أن يتقيأ ، كان هناك - خلف تلك الفكرة - طوفان من الفرح المسموم الذى يطغى على القلب . ولم يكن ذلك من التعقل فى شىء ، لقد أخطأت عندما تركت لنفسى عنان الخيال ؛ لأننى فى اللحظة التالية لذلك ، أحسست بنوع من البرد المؤلم الرهيب ، حتى إننى تقوقعت تحت غطائى وراحت أسنانى تصطك دون أن أتمكن حتى من إيقافها .

ولكنه شىء طبيعى ، فنحن لانستطيع أن نكون عقلاء على الدوام . حتى إننى - فى بعض الأحيان مثلا - كنت أضع مشروعات قوانين ، وكنت أعيد تقدير الجزاءات ، وكنت قد لاحظت أن المهم هو إعطاء فرصة للمحكوم عليه ، ولو فرصة واحدة لا الف ، فقد يكون ذلك كافيا لتغيير الكثير . فكنت أتخيل أننا يمكننا أن نخلق تركيبة كيميائية تكفى حال امتصاصها لقتل « المريض » ، (وكنت أقول المريض بدلا من المحكوم عليه تسع مرات كل عشرة) . عند ذلك ستظل هناك فرصة ضيئلة للإفلات ، وهو يعرف ذلك وهذا هو الشرط ؛ لأنه بالتفكير العميق الهادىء ، كنت أجد أن الشىء المعيب فى آلة قطع الراس ، هو أنها لاتترك أية فرصة للإفلات على الإطلاق . فإذا ماتقرر قتل المحكوم عليه فإن الأمر يصبح محتوما ولا رجعة فيه . وحتى إذا أخطاته الضربة - على فرض حدوث ذلك - فإنهم يعاودونها من جديد . وبناء على ذلك ، فإن الشىء البغيض هنا ، هو أن المحكوم عليه نفسه يصل به الحال إلى أن يتمنى النجاح للآلة . وأقول : إن ذلك هو الجانب المعيب - وهذا صحيح من ناحية ، ولكن ، من الناحية الأخرى - فإننى مضطر إلى الاعتراف بأن ذلك فى حد ذاته هو سر نجاح ذلك التنظيم . فالمحكوم عليه مضطر للتعاون نفسيا ؛ فهو فى حاجة ، بل إن من مصالحه أن يسير كل شىء دون عقبات .

كنت مضطرا أن أعترف أيضا ، أن أفكارى - حتى ذلك الحين - حول تلك المسائل ، لم تكن صائبة ؛ فقد كنت أعتقد لوقت طويل - ولا أدرى لماذا - أنه للوصول إلى المقصلة كان لابد من الصعود فوق إحدى المنصات ، عبر مجموعة من السلالم ، وأعتقد أن ذلك كان نتيجه لثورة ١٧٨٩ ، أريد أن أقول نتيجة لكل ما تعلمناه أو رأيناه عن تلك المسائل ، ولكن ذات صباح ،

تذكرت صورة كانت الصحف قد نشرتها ، لتنفيذ أحد أحكام الإعدام المشهورة . فى الواقع ، كانت الآلة موضوعة - بكل بساطة - على الأرض ، وكانت أقل حجما مما كنت قد تخيلت . لقد كان شيئا مضحكا ، ألا أعرف ذلك من ذى قبل . كانت تلك الآلة - فى الصورة - قد بهرتنى بطريقة عملها المتقنة والقاطعة . فنحن نضع دائما أفكارا مبالغًا فيها عما لانعرفه . لقد عرفت أن الآلة توضع ببساطة فى نفس مستوى الإنسان ، الذى يتقدم نحوها . ثم يلحق بها ، تماما كما نمشى - نحن - لملاقاة أى إنسان . وذلك أيضا كان شيئا بغيضا ؛ لأن الصعود إلى المنصة ، والصعود نحو السماء يمكن أن يمزجهما الخيال ، فى حين أن الآلة فى تلك الحالة ، تسحق كل شىء : تقتلنا فى سرية ، بقليل من العار ، وكثير من الدقة .

كان هناك أيضا شيئان أفكر فيهما طوال الوقت : الفجر ، والالتماس ، رغم أننى كنت أحاول التعقل وأحاول ألا أفكر فيهما ، فكنت أستلقى ، وأنظر إلى السماء ، وأحاول ألا أهتم بغير ذلك . هاهى تميل إلى الاخضرار ، إنه المساء . كنت أحاول أن أوجه أفكارى إلى وجهة أخرى ، فكنت أنصت إلى قلبى . لا أستطيع أن أتخيل أن تلك الدقات التى صاحبتنى ذلك الزمن الطويل يمكن أن تتوقف إلى الأبد . لم أكن فى يوم من الأيام صاحب خيال ، ولكننى كنت أحاول . لقد حاولت أن أتخيل نفسى فى الثوانى التى توقفت فيها تلك الدقات عن الوصول إلى رأسى ، ولكن ، ورغم ذلك ، فإن الفجر والاستئناف كانا دائما هنا ، ثم انتهى بى الأمر إلى القول بأن أكثر الأمور تعقلا هو ألا أحاول عناد نفسى .

إنهم يأتون دائما عند الفجر . لقد كنت أعرف ذلك . وفى الواقع ، فإننى كنت أقضى الليالى أنتظر ذلك الفجر ، فلم أكن أحب أبدا أن أفاجأ . فإذا

كان هناك شيء سيحدث لى ، فأنا أحب أن أكون فى انتظاره ؛ ولذلك فقد انتهى بى الأمر إلى الإقلاع عن النوم ، سوى قليل من الوقت أثناء النهار . أما الليالى الطويلة ، فقد كنت أقضيها أنتظر فى صبر ميلاد ضوء يوم جديد فوق صفحة السماء . أما أصعب الأشياء ، فكانت تلك الساعة المريبة ، التى أعرف أنهم - عادة - مايعملون فيها . فبعد انتصاف الليل ، كنت أنتظر وأترقب ، ولم يحدث أبدا - من قبل - أن التقطت أذنى ذلك الكم من الضوضاء والأصوات الخافتة ، وأستطيع أن أقول : إن الحظ قد حالفنى خلال تلك الفترة ، حيث لم أسمع أصوات أية أقدام . كانت أمى تقول دائما : إننا مهما كنا تعساء فإن هناك من هو أكثر تعاسة . ولقد كنت أجد ذلك صحيحا داخل السجن عندما كانت السماء تتلون وحينما كان اليوم الجديد يتسلل إلى زنزانتى ؛ لأنه - بدلا من ذلك - كان من الممكن أن أسمع وقع خطوات وعندها كان قلبى سينفجر . وحتى إذا كان أقل حفيف يجعلنى ألقى بنفسى أمام الباب ، وحتى عندما كنت ألصق أذنى بأرضية الزنزانة ، وأنتظر ملهوفا خائفا حتى لايعود هناك سوى صوت تنفسى المبحوح الذى يقترب من حشرجة الكلاب . حتى مع كل هذا فإن قلبى لا ينفجر . حتى مع هذا أكون قد ربحت أربعًا وعشرين ساعة جديدة .

وطوال النهار ، كان هناك الالتماس . وأعتقد أننى قد انتفعت بتلك الفكرة أفضل انتفاع ، فكنت أحسب توقعاتى وأحصل من ردود فعلى على أفضل ما يمكن الحصول عليه . ودائما كنت أفترض أسوأ التوقعات : رفض الالتماس « إننى إذن سأموت . » هذ واضح جلى ، وكلنا يعلم أن الحياة لا تستحق عناء الحياة ، وفى الواقع فإننى لم أكن أجهل أن الموت فى الثلاثين أو فى السبعين لا يختلف كثيرا ، حيث سيكون هناك - فى الحالتين - رجال

ونساء آخرون يعيشون ، وسيستمر ذلك لآلاف السنين . وفى الواقع ، لم يكن هناك أكثر من ذلك المنطق ، هو تلك القفزة الرهيبة التى أحسستها بداخلى لمجرد التفكير فى ضياع العشرين سنة القادمة من حياتى . ولكن لم يكن أمامي سوى خنق ذلك التفكير ، وذلك بأن أتخيل ماستكون عليه أفكارى بعد عشرين سنة عندما يحين وقت الموت . فطالما أننا سنموت ، فإن الكيفية والزمان لايعنيان الكثير ، وهذا شىء بديهى . وبناء عليه (والأمر الصعب هو ألا ننسى أبدا كل ماتمثله عبارة « وبناء عليه » من منطقية) ، وبناء عليه ، يجب أن أقبل احتمال رفض الالتماس .

فى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة فقط ، يكون لى الحق - إذا جاز التعبير - فى مناقشة الاحتمال الثانى : العفو . والمزعج فى هذا الاحتمال ، هو أنه كان من المهم التقليل من ذلك الاندفاع الهائل للدم الذى كان يؤلم عينى من جراء تلك الفرحة الهوجاء ، كان من المهم أيضا التقليل من حدة الصراخ . كان من المهم أن أبقى طبيعيا خلال مناقشة هذا الاحتمال ، حتى يكون قبولى ممكنا للاحتمال الأول . وعندما نجحت فى ذلك ، كنت قد جنيت ساعة من الهدوء . وقد كان هذا شيئًا لايستهان به .

وفى لحظة من تلك اللحظات ، رفضت مرة أخرى استقبال القس . كنت مستلقيا، وكنت أخمن مدى اقتراب الليل مستعينا بأضواء السماء . كنت قد انتهيت لتوى من رفض الالتماس ، وكنت أحس بومضات الدم تسرى داخلى بانتظام ، ولم أكن فى حاجة إلى رؤية القس . وللمرة الأولى - منذ فترة طويلة - رحت أفكر فى مارى . هاهى أيام طويلة قد مرت دون أن تكتب إلى . فى ذلك المساء فكرت فيها ، وقلت : إنها ربما تكون قد تعبت من بقائها صديقة لمحكوم عليه بالإعدام ، ثم خطر أيضا أنها ربما

تكون مريضة أو تكون قد ماتت . لم يكن ذلك مستبعداً . فكيف لى أن أعرف ، طالما أنه فيما خلا جسدينا اللذين قد صارا الآن متفرقين ، فإنه لاشيء يجمع بيننا، ويذكر أحدنا بالآخر . ومنذ تلك اللحظة لم تعد ذكرى ماري تعنينى فى شيء . فلو كانت قد ماتت ، فإنها أيضا لاتعنينى فى شيء، ولقد كان ذلك طبيعيا ، مثلما كنت قد استوعبت أن الناس سوف تنسانى حالما أموت .

وفى تلك اللحظة بالضبط دخل القس . عندما رأيته ارتعدت . وقد لاحظ هو ذلك ، فطلب إلى ألا أخاف ، فقلت : إنه يأتى - عادة - فى غير ذلك الوقت ، فقال : إن تلك زيارة ودية ، وليس لها علاقة بالتماسى الذى لايعرف عنه شيئًا ، ثم جلس على حافة السرير، ودعانى إلى الجلوس بجانبه ، فرفضت ، رغم أن علامات الطيبة والرقة كانت تبدو عليه .

بقى القس جالسا لبعض الوقت خافضا الرأس ، مستندا بمرفقيه فوق ركبتيه ، وناظرا إلى يديه ، ثم راح يفرك كفيه ببطء - واستمر خافضا رأسه وجالسا على تلك الحال وقتا طويلا ، حتى إننى شعرت وكأننى قد نسيته .

ولكنه رفع رأسه فجأة ، ونظر إلى وجهى قائلا : « لماذا رفضت زيارتى إليك ؟ » فقلت : لأننى لا أومن بالرب ، فأراد أن يعرف ما إذا كنت متأكدا من ذلك ، فقلت : إنه ليس هناك ما يدفعنى إلى أن أسأل نفسى ذلك السؤال ؛ فذلك فى رأيى أمر لا أهميه له . حينئذ رفع القس رأسه واستند إلى الحائط ويداه مبسوطتان فوق ركبته ، ثم قال دون أن يبدو عليه أنه يحدثنى : قد نعتقد - فى بعض الأحيان - أننا متأكدون ، ولكننا فى واقع الأمر نكون غير ذلك ، فلم أقل شيئا ، فنظر إلى وسألنى : « ماذا تقول ؟ » فقلت : إن

ذلك محتمل ، وعلى كل حال فإننى ربما لم أكن واثقا مما يهمنى حقيقة ، ولكنى على تمام الثقة مما لا يهمنى ، وإن ما يحدثنى عنه -هو بالتحديد - مما لايهمنى .

أشاح بنظره ، وسألنى - دون أن يغير موقفه - عما إذا كنت أتحدث بتلك الطريقه نظرا لما أعانيه من اليأس ، فقلت : إننى لست يائسا ، وإننى خائف فقط ، وإن ذلك أمر طبيعى ، فقال : « إن الرب سيساعدك ، وكل الذين عرفتهم فى نفس موقفك عادوا إليه ، » فاعترفت له أن ذلك حق من حقوقهم . وقد يكون أيضا لأن الوقت كان متسعا أمامهم ، أما الأمر بالنسبة لى فهو مختلف ، فأنا لا أريد أن يساعدنى أحد ، كما أنه ليس لدى الوقت لكى أهتم بما لم يكن يهمنى .

وفى تلك اللحظة ، حرك يديه فى ضيق ، ولكنه اعتدل وراح يعيد ترتيب ثنيات وشاحه ، وعندما انتهى من ذلك ، توجه إلىّ مخاطبا إياى بـ «صديقى» قال : إنه إذا كان يخاطبنى بتلك الطريقة فليس ذلك لأننى محكوم عليه بالإعدام ؛ لأننا جميعا - فى رأيه - محكوم علينا بالإعدام ، فقاطعته قائلا : إنه ليس هناك وجه للمقارنة ، كما أن ذلك لايرقى - بأى حال من الأحوال - حتى إلى مرتبة العزاء ، فأيد هو ذلك قائلا : «بالتأكيد»، ولكنك ستموت بعد حين إن لم تمت اليوم ، وعندها سوف يكون عليك مواجهة نفس الموقف والإجابة عن نفس السؤال ، فكيف ستواجه ذلك الامتحان الرهيب؟ » فقلت : إننى سوف أواجهه بنفس الطريقة التى أواجهه بها الآن . عند ذلك الحد وقف ونظر إلى مباشرة فى عينى . وتلك لعبة أعرفها جيدا . لقد كنت ألعبها للتسلية مع إيمانويل أوسيليست ، وغالبا ما كانا يشيحان بأبصارهما أمامى ، ويبدو أن القس

كان يعرف أيضا تلك الطريقة ؛ لأن نظراته كانت ثابتة لاتهتز كما أن صوته أيضا كان ثابتا لا يرتعد عندما قال : « إذن فليس لديك أى أمل ، وتعتقد أنك ستموت ، ستموت بالكامل إلى الأبد . « فقلت : « نعم . » حينئذ أطرق براسه وجلس ، ثم قال : إنه يشعر بالأسى من أجلى وقال : إن ذلك الأمر لايحتمله بشر ، فيما أحسست - أنا - أنه قد بدا يسبب لى الملل ؛ لذا قد استدرت وذهبت لأقف بعيدا مستندا إلى الجدار ، ولم أعد أتابع تماما ما يقول ، ولكننى سمعته يبدأ من جديد فى استجوابى . كان يتكلم بصوت مملوء بالقلق والرجاء . لقد كان متأثرا ؛ ولذا فقد رحت أنصت إليه .

قال : إنه واثق أن استئنافى سوف يتم قبوله ، ولكننى سوف أظل أحمل على كاهلى عبئًا لابد أن أتخلص منه ، وقال : إن عدالة البشر لاتساوى شيئا إلى جانب عدالة الرب . وعندها قلت : إن العدالة الأولى هى التى أدانتنى ، فقال : إن تلك الإدانة لم تَمْحُ - مع ذلك - خطيئتى . فقلت : إننى لا أعرف ماذا تعنى الخطيئة ، فهم قد قالوا لى فقط : إننى مذنب . لقد كنت مذنبا وهأنا ذا أدفع الثمن ، ولا أحد يستطيع أن يطلب منى المزيد . عند ذلك الحد نهض القس من جديد . ففى تلك الزنزانة الضيقة ، إذا كان يريد أن يتحرك ، فليس أمامه مجال للاختيار : فإما أن يجلس ، وإما أن يقف .

كانت عيناى على الأرض . فخطا نحوى خطوة ، ثم توقف ، وكأنه لم يجرؤ على التقدم ، ثم نظر إلى السماء عبر القضبان ، ثم قال : « أنت تخطىء ياولدى . فهناك من يستطيع أن يطلب إليك المزيد ، وربما سوف يطلبه . » فقلت : وماذا سيطلب إلى ؟ قال : « سيطلب إليك أن ترى » فسألته : أرى ماذا ؟ فنظر القس من حوله ثم أجاب بصوت متعب : « أنا أعرف أن كل

تلك الحجارة تشعر بالألم . فلم أنظر إليها أبدا دون أن يصيبنى القلق . ولكننى - ومن أعماق قلبى - أعرف أن أكثر الناس تعاسة استطاع أن يرى عبر تلك الأحجار وجه الرب ، وهذا الوجه هو الذى يجب ان تراه . »

على إثر ذلك انتابنى شىء من الحماسة فقلت : إننى أنظر إلى تلك الحوائط منذ شهور طويلة ، وليس هناك شىء أو شخص أعرفه فى العالم كله أكثر من معرفتى بها ، وإننى - منذ وقت طويل - ربما كنت قد بحثت فيها عن أحد الوجوه ، ولكن ذلك الوجه كان له لون الشمس ، وكان له سعير الرغبة : لقد كان وجه مارى . كنت قد بحثت عنه دون جدوى . أما الآن فقد انتهى كل شىء . وعلى كل حال ، فإننى لم أر شيئا يخرج من بين تلك الأحجار .

نظر إلى القس بنوع من الأسى والحزن . كنت فى ذلك الوقت مستندا تماما إلى الجدار ، وضوء النهار ينساب فوق جبهتى ، فقال بعض الكلمات التى لم أتبينها جيدا ، ثم سألنى بسرعة إذا كنت أسمح له أن يقبلنى ، فقلت : «لا» فاستدار ناحية الجدار ، ومر عليه براحته فى بطء وهمس قائلا : « إلى هذا الحد تحب الحياة على تلك الأرض ؟ » فلم أرد .

مكث القس طويلا وظهره إلى ناحيتى ، ولكن مجرد وجوده كان يزعجنى ويثقل على ، وبينما كنت أتهيأ لأن أطلب إليه أن يدعنى وشأنى وجدته يستدير ناحيتى ويصيح فجأة : « لا ، لا أستطيع أن أصدقك ، إننى واثق من أنك قد رغبت يوما ما فى حياة أخرى . » فقلت : بالطبع ، ولكن ذلك لم يكن له أية أهمية ، ولايختلف كثيراً عن رغبتى فى أن أصبح غنيا أو فى أن أصبح سباحا ماهرا أو فى أن أمتلك وجها أفضل من هذا . إن ذلك كله هو نفس الشىء .

ولكنه أوقفنى ، لقد أراد أن يعرف كيف أتخيل تلك الحياة الأخرى . فقلت : هى حياة أستطيع أن أتذكر تلك التى أعيشها ، ثم أضفت على الفور : إننى لم أعد أحتمل ولا أريد المزيد . وكان هو يريد أن يحدثنى من جديد عن الرب ، فتقدمت إليه ، وحاولت أن أوضح له للمرة الأخيرة أنه لم يعد لدى سوى قليل من الوقت ، وأننى لا أريد أن أضيعه مع الرب . فحاول أن يغير مجرى الحديث ، وسألنى : لماذا أناديه بيا « سيدى » بدلا من يا « أبى » ؟ وقد ضايقنى ذلك ، فقلت له : إنه ليس أبى : وإنه مع الآخرين .

قال وهو يضع يده فوق كتفى : « لا يابنى ، إننى معك . ولكنك لاترى ذلك ؛ لأن لك قلبا لايرى ، وسوف أصلى من أجلك . »

عند ذلك الحد ، ولا أعرف لماذا ، أحسست أن شيئا قد انفجر بداخلى فرحت أصرخ بكل قوتى وألعنه ، وقلت له ألا يصلى من أجلى ، ثم أمسكته من ياقته ، ورحت أصب عليه كل ما أجده فى أعماق قلبى مضافا إليه خليط من القفزات الممزوجة بالفرح والغضب . لقد كان واثقا مما يقول ، وبالرغم من ذلك فإن هذه الثقة لاتساوى شعرة واحدة من رأس امراة . إنه حتى لم يكن واثقا من كونه على قيد الحياة ؛ لأنه كان يحيا كالميت ، أما أنا ، فكنت أبدو خالى الوفاض ، ولكننى كنت واثقا من نفسى ، واثقا من كل شىء ، كنت أكثر منه ثقة ، كنت واثقا من حياتى ومن الموت الذى أنتظره ، نعم ، لم يكن لدى غير ذلك ، ولكننى على الأقل كنت قابضا على تلك الحقيقة بمثل القدر الذى تقبض به على . إننى كنت على حق ، ولازلت على حق . لقد عشت بطريقة ما ، وكان من الممكن أعيش بطريقة أخرى . لقد فعلت هذا ، وكان من الممكن أن أفعل ذاك ، ثم ماذا ؟ . إن ذلك يشبه إذا ما

كنت قد انتظرت طوال الزمان تلك الدقيقة من ذلك الفجر لتبرير ما اقترفت، ولكن لاشىء ، لاشىء على الإطلاق يستحق تلك الأهمية ، وأنا أعرف السبب ، وهو أيضا يعرفه . فمن أعماق مستقبلى ، وطوال تلك الحياة السخيفة التى عشتها ، كان هناك شىء غامض يصعد نحوى عبر السنين التى لم تكن قد أتت بعد ، وكان ذلك الشىء الغامض يساوى ويسير فى نفس الطريق الذى يسير فيه كل ما كانوا قد عرضوه على عبر تلك السنين الغامضة التى كنت أعيشها . ماالذى يهمنى فى موت الآخرين ؟ ماالذى يهمنى فى حب الأم ؟ ماالذى يهمنى فى ربه ؟ ماالذى يهمنى فى الحياة التى نختارها، والأقدار التى نختارها ، طالما أن هناك قدرا واحدا هو الذى اختارنى . فى حين أن هناك المليارات من المحظوظين –مثله – الذين يدعون إخوتى ؟ فهل يفهم ؟ هل يفهم ذلك ؟ كل الناس محظوظون ، ليس هناك سوى هؤلاء المحظوظين ، وهؤلاء سوف يحكم عليهم يوما ما ، وهو أيضا سوف يحكم عليه . ماالذى يهم مذنباً بجريمة قتل إذا أعدموه لأنه لم يبك فى جنازة أمه ؟ كلب سالامانو كان يساوى زوجته ، والمراة الآلية كانت مذنبة بنفس القدر الذى كانت عليه تلك الباريسية التى تزوجها ماسو ، أو بنفس القدر الذى كانت عليه مارى التى كانت تريدنى أن أتزوجها . ما الذى يهمنى إذا كان ريمون قد صار صديقى بنفس القدر الذى كان عليه سيليست ، رغم كون الأخير أفضل من الأول ؟ ماالذى يهمنى إذا أحبت مارى اليوم ميرسو جديدًا ، فهل يفهم هذا المذنب، أننى من أعماق مستقبلى . . . . .

لقد كنت أصرخ حتى إننى أوشكت على الاختناق . ولكنهم كانوا قد انتزعوا القس من بين يدى . وراح الحراس يهدوننى . ولكنه – على الرغم

من ذلك - راح يمنعهم ثم ينظر إلى فى صمت ، وعندما استدار واختفى . كانت عيناه مليئتين بالدموع .

عندما رحل القس ، حل بى الهدوء . كنت مجهدا ، فألقيت بجسدى فوق مضجعى ، وأعتقد أننى قد غفوت ؛ لأننى عندما استيقظت كانت هناك نجوم فوق وجهى ، وكانت ضوضاء الريف تتصاعد من الخارج لتصل إلى ، وروائح الليل والأرض والملح كانت تنعش رأسى . كان السلام الرائع لذلك الصيف الهادىء يتخللنى . فى تلك اللحظة على حدود الليل انطلقت بعض الصفارات ، إيذانا بالرحيل إلى عالم لم يعد يهمنى الآن فى شىء . وللمرة الأولى منذ وقت طويل تذكرت أمى ، وبدا لى أننى قد فهمت لماذا اتخذت لنفسها « صديقا» فى نهاية حياتها . لماذا كانت تريد أن تبدأ من جديد . فهناك ، ومع اقتراب الموت ، كانت أمى مستعدة أن تبدأ الحياة ليس لأحد قط الحق فى أن يبكى عليها ، وأنا أيضا أحسست أننى مستعد أن أبدأ الحياة من جديد ، وكأن تلك الغضبة الكبرى قد خلصتنى من الشر وأفرغتنى من الأمل . فى ذلك الليل الذى يفيض بالنجوم ، أحسست للمرة الأولى بعذوبة ورقة اللامبالاة ، وأحسست أننى كنت سعيدا فى يوم من الأيام ، ولازلت حتى الآن ، أتمنى أن ينتهى كل شىء ، وأتمنى أن أكون هناك أقل وحدة من هنا ، ولم يبق سوى أن أتمني أن يكون هناك الكثير من المتفرجين يوم الإعدام ، وأن يستقبلونى بصرخات الحقد والغضب .



أعمال البير كامى

*** روايات ـ قصص**

- الغريب
- الطاعون
- السقوط
- المنفى والمملكة

*** قصص قصيرة**

- نبذات
- أفراح
- أسطورة سيزيف
- وقائع ١ (١٩٤٤ م - ١٩٤٨ م) .
- وقائع ١١ (١٩٤٨ م - ١٩٥٣ م) .
- وقائع ١١١ عن الجزائر (١٩٣٩ م - ١٩٥٨م)
- الرجل المتمرد
- الصيف

ـ المقلوب والمعدول

ـ خطابات السويد

ـ مذكرات ١ (١٩٣٥م ـ ١٩٤٢م) .

ـ مذكرات ١١ (١٩٤٢م ـ ١٩٥١م) .

ـ الموت السعيد

*** مسرح**

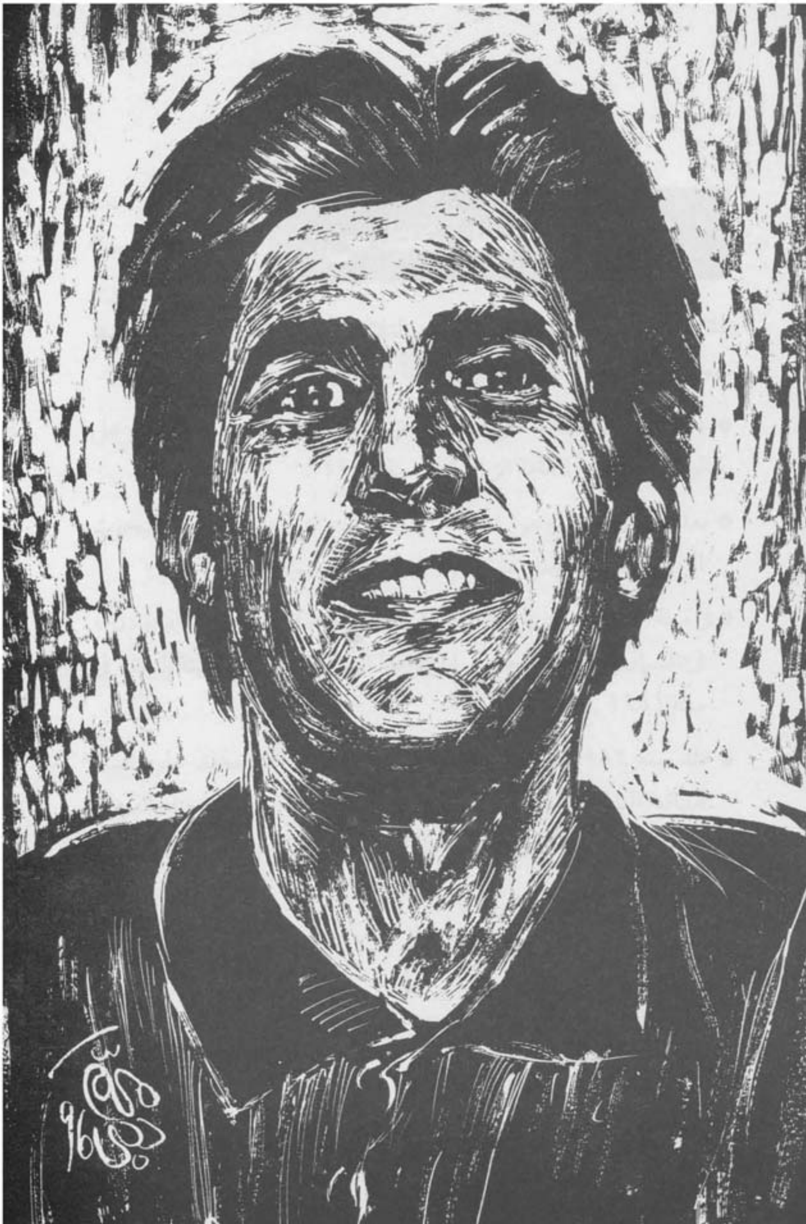
ـ كاليجولا

ـ حظر التجول

ـ سوء التفاهم

ـ المنصفون

*** عدا أعمال الترجمة والاقتباس العديدة .**



دكتور محمد غطاس

* ولد محمد غطاس فى سنة ١٩٥٠ بقرية الشيخ مبارك ، الواقعة تحت أقدام التلال المحصورة بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس ، فى أقصى شمال الدلتا بمحافظة كفر الشيخ .

* بعد إتمام دراسته الثانوية ، التحق بكلية الزراعة حيث حصل على بكالوريوس العلوم العامة الزراعية فى سنة ١٩٧٢ .

* بعد ثلاث سنوات من الخدمة العسكرية ، عين باحثا بمركز البحوث الزراعية حيث حصل على درجة الماجستير فى فسيولوجيا النبات .

* فى سنة ١٩٧٧ سافر إلى فرنسا ، على نفقته الخاصة ، التحق بجامعة دن ، فى الشمال الغربى ، وحصل على درجة الدكتوراه فى علوم البيئة النباتية فى سنة ١٩٨١ .

* منذ سنة ١٩٨١ وحتى ١٩٩١ ، ظل يعمل باحثا بمعهد علوم البيئة النباتية التابع لجامعة لويس باستير فى ستراسبورج ، مما أتاح له الفرصة ليزور العديد من البلاد العربية والأوروبية بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

* مع نهاية سنة ١٩٩١ عاد إلى مصر ، حيث استقر نهائيا بمدينة القاهرة ، محاولا التفرغ للإنتاج الأدبى والترجمة .

كامى ..والغريب

هناك من الكتاب من يحاول أن يؤقلم حياته مع معتقداته . وهناك نوع آخر لا يستطيع إلا أن يؤقلم معتقداته مع الحياة . والبير كامى هو من ذلك النوع الأخير . وإذا أردنا ان نعرف لماذا ، فعلينا أن نسأل أنفسنا : هل يمكننا أن نكتشف حقيقة آراء ومعتقدات أى إنسان دون أن نكتشف حقيقة حياته ؟ . او بمعنى آخر : هل حقيقة وقيمة الإنسان منفصلة عن حقيقة وقيمة آرائه ومعتقداته ؟ . لقد أجاب البير كامى عن تلك الأسئلة دون لبس أو غموض ، فقال : إن معتقدات وآراء الإنسان ليست إلا ترجمة لحياته ، وإن طريقة التفكير تكشف عن طريقة الحياة ؛ فالإنسان لايمكن إلا أن يكون محصلة لما يفعل ولما يقول ، سواء كان ذلك إراديا أولا إراديا

ولذلك فإن شغله الشاغل لم يكن سوى محاولة اكتشاف الأبعاد الحقيقية للإنسان ، وبالتالى فإن فلسفته كانت بكل تأكيد إنسانية وجودية . وهى فلسفة مغايرة للفلسفات الروحية والمادية والوجودية . إنها فلسفة اكتشاف الإنسان عن طريق اكتشاف وجوده التلقائى . لقد كان يطمع فى إفراغ الإنسان من كل ما هو لا إنسانى ، ولكنه كان يريد أن يفعل ذلك بعيدا عن المبدأ القائل « إن كل شىء مباح » ولذلك فقد حاول جاهدا أن يوضح أن الإنسان ليس فى حاجة للانتساب إلى مبادىء أخلاقية عليا حتى يكون على خلق .

وليس معنى ذلك أن البير كامى كان فرديا أو فوضويا ؛ لأن الفردى يقول : لا لكل ما لا يتفق مع أهوائه الشخصية ، فى حين أنه منذ البداية كان قد قال : نعم لكل مايربطه بالآخرين ، أما ال (لا) فلم يكن يرفعها إلا أمام ما يختلف باختلاف الإنسان : كالعادات والآمال والتاريخ والدين . « إن ما أريده من الإنسان هو أن أخلصه من أعضائه الوهمية ؛ كى يدرك فى نهاية الأمر أنه قد صار واضحا ومتجانسا » .

بعد أن أشار إلى ما هو مشترك بين بنى الإنسان ، أراد البير كامى أن يبرز ما يميزهم كالضمير مثلا . ولقد فعل ذلك موضحا أن تلك الاختلافات لاتفرقهم ولا تغرقهم فى بحور العزلة بقدر ماتنظمهم وتؤلف بينهم ؛ لأن «الناس لو كانوا متشابهين تماما لما أمكن جمعهم إلا فى قطيع » . وها نحن أمام توازن دقيق بين أوجه التشابه وأوجه الخلاف . وهذا مايميز دائما فكر البير كامى الإنسانى ، حيث إن أى فكرة لايمكن أن تكون إنسانية إلا إذا كانت تحدها فكرة مضادة .

ويبدو أن حياة البير كامى نفسها هى التى دفعته إلى ذلك المنحى ، أى إلى أن يؤقلم معتقداته وآراءه مع الحياة . فالسخرية والدعابة - مثلا - فى أسلوبه لم تستحدثا من العدم ، بل يبدو أن ميلادها كان مرتبطا ببعض الإحباط ، فرغم أنه كان يعلن سعادته لكونه قد ولد فقيرا محتاجا ، فإنه لم يتوان عن السخرية والدعابة من ذلك الفقر وذلك الاحتياج ومن كل مايترتب عليهما ، حتى إنه قد واصل ذلك الأسلوب حتى بعد أن انزاح عن كاهله ذلك العوز بدافع من الإخلاص لمبادئه وللقيم التى كان الفقر والاحتياج قد ولدها لديه . وها هو بواسطة السخرية والدعابة يتخلص من المأزق الذى يقع فيه من يريدون إيجاد حقيقة العلاقة بين الحياة والموت ،

والحياة والخلود . فيقول : إن « الموت هو الجسر الفاصل بين النوم الملىء بالمناظر والنوم الخالى من الأحلام » . وها هو ذا أيضا يكتب لتقديم طبعة جديدة لأحد كتبه القديمة فيقول « إذا كنت قد مشيت طويلا منذ ظهور ذلك الكتاب ، فإننى على العكس من ذلك لم أتقدم كثيرا . ففى غالب الأحيان عندما أعتقد أننى أتقدم أجد نفسى أتقهقر » .

برزت له الحياة « عادية » من كل زيف ، فلم يحجبه عنها شىء ، ولم يقف بينه وبين ذلك العالم حائل : من مال أو جاه أو دين أو معتقدات . فلم يكن هناك شىء يملكه ؛ لأنه هو نفسه لم يكن يملك شيئا ؛ ولذلك فقد استطاع أن يحتفظ بحريته الحقيقية تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

وفى البداية راح ألبير كامى يمارس تلك الحرية فى معالجة الإنسان عن طريق فحصه على حالته الفردية من حيث : السعادة والموت والحرية والعمل والحب والخلق . وفى أثناء ذلك كان يريد أن يتأكد من أننا لن نهرب خارج الحدود الإنسانية .

حاول دائما أن يرسم ويؤكد الحدود بين المباح والممنوع . وراح ينادى بأنه «ليس كل شىء مباحًا » . وإذا حدث - فى بعض المرات - وقال عكس ذلك ، فقد كان هذا فقط بهدف انتشال الإنسان من متاهات الجرى وراء فتات الأخلاق الفاضلة ؛ ولذلك فقد كان يضيف بسرعة أن « كل شىء مباح لاتعنى أبدا أنه ليس هناك ما يجب الدفاع عنه » . فكل شىء مباح هى صرخة الإنسان فى وجه الأمر الجائر . فى حين أنه ليس كل شىء مباحًا هو السلوك الذى يعتبر أن الحياة مقدسة ، ومقدس مافيها من الأمور التى لايمكن أن يكون الإنسان بدونها إنسانا مثل : السعادة والحرية والعمل

والحب والخلق .

وحاول البير كامى طوال حياته أن يحافظ للإنسان على تلك الحياة المقدسة . ولم يكن فى ذلك متفائلا أو متشائما . إنه فقط يسعى وراء سعادة الإنسان ، ويرفض شقاءه تحت ستار الأمل أو العقيدة . إنه يؤمن بأهمية الإنسان ، حتى إن الدولة فى نظره لم تكن سوى « نظام إنسانى » ليس فيه سوى « حلول إنسانية » إنه لم يكن متشائما ؛ لأن الإنسان لكى يكون متشائما يجب ألا يؤمن بشىء ، فى حين أنه يؤمن بالحياة بكل قوته ، ورغم أنه لم يكن ممن يحبون الأمل فإنه – مع ذلك – لم يكن يائسا .

فبدون الأمل لا يمكن مواصلة الحياة ؛ لأن «الذين لا يجدون السلام مع الرب أو مع التاريخ يحكمون على أنفسهم بالحياة مع أمثالهم من الخانعين » .

استمر البير كامى – طيلة حياته – يدافع عن حياة الإنسان ، وعما فيها من الأمور التى لايمكن أن يكون الإنسان بدونها إنسانا : فهو يدافع عن الحرية ، رغم إدراكه أن الحرية الكاملة لا وجود لها . « فنحن دائما أحرار ولكن على حساب الآخرين » . وهاهو ذا يصرخ بالنيابة عنا جميعا ، مطالبا بالمزيد من الحرية الحقيقية « إن حريتى هذه ليست من النوع الحقيقى ! » .

وليست هناك قوة تستطيع أن تقضى على الحب أو الحرية ، حتى الموت لا يقضى على الحرية ، والحرية غير الملموسة لا تعنى شيئا «فمعرفة أن الإنسان حر لايهمنى ، ولكننى أريد أن أشعر بحريتى » .

ثم يدافع البير كامى عن الحب . إنه يريد أن يحتفظ به للإنسان ، فالحب والحرية صنوان لا يفترقان . ويمارس البير كامى هوايته فى تقدير وخلط الجرعات الإنسانية ، فيعترف بأن الحب هو « خليط من ' ر .

والعطف والذكاء » بجرعات تختلف من إنسان لإنسان .

حتى الموت ، فإنه من الأمور الإنسانية التى لا يكون الإنسان بدونها إنسانا ؛ ولذا وجب الدفاع عن إنسانية الموت . فالموت يرتبط بالقيمة التى نعطيها للحياة ، وهذا ما يفسر أهميته : « والموت يضع نهاية لتلك الحياة اللامعقولة » . والإنسان الحر « هو الذى يتقبل الموت كما هو ، ويتقبل - فى نفس الوقت - كل النتائج المترتبة عليه من انهيار لكل القيم التقليدية للحياة» .

أما تعاطى الموت أو الانتحار فيمكن ان نعتبره « النتيجة المنطقية لتزايد الوعى بالمتناقضات الهائلة فى الوجود الإنسانى » . أو « النتيجة غير المنطقية للامعقول » . فتعاطى الموت يكون لوضع حد لحياة لم يعد لها قيمة أو معنى ؛ ولذلك فإننا لانخشى الاستشهاد ؛ لأننا نعطى قيمة ومعنى للحياة الأخرى تفوق قيمة الحياة التى نعيشها .

وملكة الخلق عند البير كامى من الملكات الإنسانية التى تضاعف الحياة ، وتباعد بيننا وبين الموت . « الخلق يعنى أن تعيش مرتين » لأنه إذا كانت « سعادة الإنسان هى أن يجمع كل مايستطيعه فى الحاضر » فإن مضاعفة ذلك الحاضر تعتبر الهدف الوحيد المعقول ، وذلك أننا كلما ضاعفنا الخلق وضاعفنا الحاضر زادت فرص نجاح الحياة ، والخلق هو «نبع من ينابيع الحرية ؛ لأنه يخلص الإنسان من كل ماليس إنسانيا » . فمن بين كل مذاهب الصبر والنقاء ، فإن الخلق هو أكثرها أهمية . إنه الدليل القوى على كرامة الإنسان و « الفنان او المفكر الذى يتوقف عن الخلق ، يتوقف - فى نفس الوقت - عن الاقتراب من الخالق ، ويتوقف ضميره عند حالة اللا

معنى التى قد تسود العالم ، وعندها يكون العدم » .

والخلق يظهر مأساة الروح والذكاء ؛ لأن الخلق يستلزم تجميع كل عناصر المعرفة .

ولكن نظرا لأن الإنسان - أثناء سعيه وراء تلك العناصر - ينتهى به الأمر إلى الهروب من ذلك العالم الذى يخنق القيم الأكيدة المتبقية ، فإن التجربة والذكاء تخلق - عن طريق الفن - عناصر أخرى بديلة ؛ ولذا فإن البير كامى يقول : « لو أن العالم كان جليا واضحا ، ماكان هناك حاجة إلى الفن» .

والفن لابد أن يكون واقعيا « لأنه لكى نتحدث عن كل شىء ولكل الناس فلابد أن نتحدث عما يعرفه هؤلاء الناس وعن الواقع المشترك؛ فالأحلام تتغير الناس ، أما الواقع فهو وطننا المشترك » .

والفن ليس غاية ، ولكنه وسيلة « الفن - من وجهة نظرى - ليس سعادة فردية ، ولكنه وسيلة لتحريك أكبر عدد ممكن من الناس لتقديم أشكال مميزة ومشتركة من المعاناة ومن السرور ؛ ولذا فإن الفنان يجب ألا يكون معزولا عن الناس » .

والبير كامى لا يضم صوته إلى هؤلاء المصلحين الثوريين ولا إلى العدميين الذين يبدون العداء الدائم للفن . ألم يقل أحدهم : أنا أفضل قطعة من الجبن على كل أعمال بوشكين ، بل هو يؤمن بأنه ليس هناك تضاد أو تعارض بين الفن والفلسفة ، فيؤكد « لا أستطيع العيش بدون فنى ، ولكننى لم أضع أبدا ذلك الفن فوق مستوى البشر ، بل على العكس إذا كان ذلك الفن ضروريا بالنسبة لى ، فذلك لأنه لا ينفصل عن الناس ويسمح لى

بالعيش فى مستوى الجميع » . وهو يعتقد أن للفن وللفلسفة نفس الأبعاد ونفس الأهمية ؛ ولذلك فإن الفن للفن ، والفن الموجه ليس لهما مايبرر وجودهما . ومن ناحية أخرى فإنه إذا اقتصر الفن على مايريده المجتمع - فى مجموعه العام - فإنه سيتحول إلى التسلية غير الهادفة .

وطبقا لما يقوله البير كامى فإن الرواية هى أفضل مظاهر الخلق الفنى . و«بالرواية نستطيع الإفلات من الواقع ، وأن نقول له : لا » . والإفلات هنا ليس معناه الهروب ؛ لأن الإنسان - وهو لا يستطيع أن ينعزل عن العالم - يشعر بالانزعاج لكل ما لا يستطيع أن يمتلكه من أشكال وأقدار. وحيث إننا لا نستطيع أن نمتلك أشكالنا وأقدارنا، فإننا - عن طريق الحب - نحاول أن نمتلك أشكال أو أقدار الآخرين . وبما أننا - فى الواقع - لا نستطيع أن نمتلك كائنا من كان إلا إذا استمرت تلك الملكية باستمرارية ذلك المملوك ، فإن الحب يرتبط بالموت .

والخلق الروائى ليس نوعا من التسلية ؛ لأن « الفن من أجل الفن هو فن مزيف لمجتمع خيالى زائف لا يعيش إلا على التكلف والخيال ، وينتهى به الأمر إلى تدمير كل ماهو حقيقى » . وهو أيضا « هذا العالم الذى تأخذ فيه الحركة شكلها وهيئتها ، وحيث كلمات النهاية تعبر عن نفسها ، وحيث الكائنات تتعامل مع الكائنات ، وحيث كل حياة ترتدى وجه القدر » .

بعد أن حاول البير كامى معالجة الإنسان على حالته الفردية ، راح يعالج العلاقات الإنسانية ويدرس التركيبة الاجتماعية طبقا لمصطلح أطلق عليه «اللا معقول » . وهو يعنى« انعدام الأمل ، بل هو عكس الأمل تماما » . وهنا يجب ألا نخلط بين انعدام الأمل واليأس.. « فالذى لا يأمل شيئا ليس

له الحق فى أن ييئس » . ونحن « لن ننتمى لهذا العالم إذا كنا نأمل عالما آخر» . ولكن تلك التجربة الإنسانية أثبتت أن ذلك الامعقول قد ولد فى ظل أزمة وجودية ، وظل حبيسا داخل جدران الضمير ، وإن كان قد أيقظه .

ولذلك فقد استعاض عن مصطلح « اللامعقول » بمصطلح «التمرد » . وحاول أن يجعل منه القوة المحركة الجديدة للتاريخ الإنسانى . « فكما أن الإنسان محدود بالتاريخ فإنه أيضا يحدد التاريخ » . وهذا نوع من التمرد . و« لن نستطيع أن نهرب من التاريخ ؛ لأننا فيه غارقون حتى آذاننا ، ولكننا نستطيع أن نكافح من خلال التاريخ » وذاك أيضا نوع من التمرد .

والتحول إلى منهَج التمرد لم يكن هروبا من منهج اللامعقول ؛ لأن تمرد البير كامى ظل مشتعلا داخل إطار غير مرئى من اللامعقول ، ولكن ذلك التحول كان وسيلة لمنع الخطأ الذى وقع فيه البعض - عن عمد أو عن غير عمد - من خلط اللا معقول تارة بالحماقة وتارة بالأخلاق . ثم إن ذلك التحول لم يكن فجائيا ، بل كان على العكس من ذلك فى صورة محاولات تدريجية لانتزاع التمرد من براثن اللا معقول .

فها هو ذا - فى بداية الامر - يصر على استمرارية الربط بينهما « إذا كان اللامعقول لايستخدم إلا بفضل التمرد ، فإن التمرد لن يحيا إلا بالدفاع عن اللامعقول» . وأيضا « نقطة البداية فى اللا معقول وفى التمرد واحدة ، وهى النقطة التى عندها ندرك حقيقة موقفنا غير العادل وغير المنطقى . فالتمرد يولد من إدراك اللا معقول . عند ذلك فإن اللا معقول يدفع إلى التمرد ضد المتناقضات » .

ثم يحاول أن يفحص الإنسان مع استمرار الربط بين الاصطلاحين ،

فالإنسان هو الإنسان إذا مافحصناه عبر فكرة اللا معقول أو عبر فكرة التمرد، فهو فى الحالتين « كائن محدود يحطم نفسه إذا ما حاول أن يتخطى تلك الحدود » .

ثم يلقى البير كامى جانبا بمصطلح اللامعقول ، ويعتمد كلية على مصطلح التمرد ، فيبدأ فى تحديد شروطه « التمرد يجب أن يخضع للمنطق؛ لأن التمرد اللامنطقى يطالب بالحرية المطلقة ، أى الانتشار غير المحدود للغرور الإنسانى ، وقد يصل الحد إلى التمرد ضد المخلوقات وضد الخالق »وهو هنا يختلف مع الوجوديين؛ لأنه لم يكن يؤمن إلا بالحرية النسبية . فالإنسان مرتبط بالتاريخ الذى مضى وبالظروف الحاضرة ، وهذا يؤكد نسبية الحرية ، وهناك شرط آخر ، وهو أن التمرد لاينكر كل القيم العليا ؛ لأنه إذا حدث ذلك فلابد أن اللامعنى سوف يسود العالم ، وعندها لن يكون هناك سوى اللامبالاة ؛ ولذا فإن البير كامى يحذر من أن « التمرد إذا كان يفضى إلى الدمار فهو غير منطقى » .

وهناك شرط ثالث ، وهو أن يكون التمرد كريما بدون حدود . فهو »يعطى الحب على الفور ، ويرفض الظلم دون تأخير ، ويكتسب شرفه من أنه لا يبخل على الحياة وعلى الأحياء بشىء . فالكرم الحقيقى للمستقبل هو أن نعطى كل شىء فى الحاضر » .

وبالنسبة للتمرد ـ كما هو الحال بالنسبة للامعقول ـ فإنه ليست هناك حرية مطلقة ولا عدالة مطلقة ولاقيم نهائية . ولن يكون هناك تطور فى العلاقات الإنسانية إلا إذا ضبطت المعايير بحيث لايخون الإنسان إنسانيّته . ولا يتعدى الحدود بين النسبى والمطلق ، وبين الممكن وغير الممكن ، وبين

المحسوب وغير المحسوب ، وبين النوعية الدنيئة والنوعية السامية . وهذه العلاقات لن تصل أبدا إلى مرحلة الكمال أو إلى قمة البراءة أو إلى حضيض الاتهام ؛ لأن الإنسان ليس إلا خليطا من الخير والشر والمعقول واللا معقول، اى باختصار خليطا من الأفكار النسبية .

ولذلك فإنه من المهم أن نعمل دائما علي أن تكون هناك جرعات محسوبة بدقة من كل واحد من مكونات العلاقات الإنسانية . بحيث - مثلا - لاتقتل العدالة الحرية ، ولا تطغى الحرية على العدالة ؛ لأنه إذا حدث ذلك فلن يكون هناك تفاهم أو تضامن أو حب . « فلا يوجد إنسان يعتبر نفسه حرا إذا لم يشعر بالعدل ، ويعتبر نفسه مُنْصَفًا إذا لم يشعر بالحرية » .

والتمرد عند البير كامى يتجاوز الحدود الفردية من أجل الصالح العام، رغم أن ذلك التمرد لا يولد إلا من الخصائص الفردية للإنسان ؛ ولذلك فإن « الفردية تترك مكانها للتضامن » أى أن «تضامن البشر يقوم على أكتاف التمرد . وهذا التمرد لايجد مايبرره إلا بفضل التضامن » .

ثم يبدأ البير كامى فى استخدام مصطلحه الجديد « الطبيعة الإنسانية » ولكنه لم يعرفه لنا أبدا ، فـ « هذا المصطلح ليس له من هدف سوى أن يحدد نظاما إنسانيا فى مواجهة كل من يحاول تجريد الإنسان من إنسانيته » . والطبيعة الإنسانية - من وجهة نظره - تنتمى إلى إنسان كل العصور ، وبواسطتها يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته . وتحقيق الذات يعنى تحقيق السعادة . فالإنسان يجب أن يحيا سعيدا . وليس لأحد الحق فى أن يطالبه بأن يضحى بكل شىء « فحتى المجتمع ليس هدفا يجب أن يضحى الإنسان من أجله بكل شىء ، ولكنه الوسيلة التى تمكن كل إنسان من أن يشترك

بحرية فى الحياة العامة » .

ولاشك أن هناك علاقة بين التمرد والطبيعة الإنسانية « فالتمرد موجود بداخل الإنسان ، وهو الذى يجعله يرفض المعاملة على أنه تاريخ فقط . إنه الدليل على أن هناك طبيعة واحدة لكل البشر الذين يحاولون التخلص من عالم القمع . إنها الطبيعة الإنسانية » . وفى النهاية ، يحاول البير كامى أن يربط كل تلك المصطلحات « لن يكون هناك لا معقول بدون تمرد ، ولا تمرد بدون لا معقول . والتمرد لكى يوضح حدوده يصنع بعض القيم اللامعقولة ، وهذه هى الطبيعة الإنسانية» .

نخلص من ذلك إلى أن فكر البير كامى لم يكن يسير فى خط مستقيم ، سواء كان ذلك الخط صاعدا أو هابطا ، ولكنه - إذا أصررنا على التشبيه - كان يتقدم حلزونيا حيث يمر مجددا بطرق قديمة دون أن يتوقف - مع ذلك- عن الصعود .

لقد عانى البير كامى كثيرا من عدم فهم أفكاره، من جانب البعض . ورغم أنه كان قد استبدل لفظ التمرد ، بلفظ اللامعقول فإن ذلك الاستبدال لم يحسن من فهم تلك الأفكار . وقد استمر ذلك الأمر حتى وفاته وانعكس على أعماله . وقد أشار إلى ذلك فى مذكراته « لم يكن هناك على ظهر الأرض إنسان يثق فى قدرته على غزو العالم بالطرق المستقيمة ، مثلما كنت أنا . والآن أرى أن هناك خطأ ، فأين هو هذا الخطأ ، وماالذى أضعفنى فجأة؟ » .

وشيئا فشيئا اقتنع البير كامى بأن إنقاذ الإنسان لايكفى ، ولابد من الاهتمام بإنقاذ الضمائر ، التى أصبحت أكثر مرضا . « لأن الضمائر كانت قد قررت - باسم الأفكار المطلقة واللاإنسانية - اعتبار الحياة شيئا لا

يستحق الاهتمام ، وبالتالى إطلاق الإنسان ضد أخيه الإنسان » .

لقد كان يؤمن بأنه لا شيء يعلو فوق الضمير ؛ فهو الذى يعمل على ألا يضيع الإنسان - كفرد - وسط العالم ، وهو الذى يجعل الناس متساوين . والإحساس بالمساواة هو الشرط الأول لتحقيق التضامن الحقيقى . والضمير يجب ألا يموت أبدا حتى مع موت الإنسان « فالموت لا يحيى الضمير فقط ، ولكنه يحرره أيضا » .

وفى سنه ١٩٥٧ م ، تلقى جائزة نوبل للآداب «على مجموعة أعمأله التى تلقى الضوء على المشاكل التى تواجه الضمير الإنسانى .

وفى ستوكهولم راح يواصل دفاعه عن الإنسان ، وراح يردد « أنا أومن بالعدالة ، ولكننى سأدافع عن الإنسان قبل الدفاع عن العدالة » فرسالته لم تكن سوى الدفاع عن الإنسان ، وعن كل ما يعتز به الإنسان ، ضد قوة العادات وضد جاذبية العدم .

وفى الرابع من يناير ١٩٦٠ م ، فقدت الإنسانية واحدا من محاميها الأكثر تحمسا وأمانة ووضوحا .

و« الغريب » هى أُولى روايات البير كامى ، بدأ كتابتها سنه ١٩٣٩ م ونشرها سنه ١٩٤٢ م وبعدها طارت شهرته إلى جميع الآفاق .

وميرسو بطل الرواية أو الغريب هو الصورة التى توضح حقيقتنا عندما تنزع كل القشور ونتخلص من كل الأقنعة . إنه « تمرين عملى على الموضوعية والحرية » .

وفى تلك الرواية فإن فن صياغة الأسلوب ، بل وفن اختيار المفردات

نفسها ، وطريقة استغلالها ، مضافا إلى ذلك الطريقة العجيبة - التى لم نتعود عليها - عند استخدام الأزمنة ، والاتجاه إلى التأثير على ضمير القارىء، يصل بنا فى نهاية الأمر إلى نوع من الغليان الانفعالى ؛ ولذلك فمن منا يستطيع أن ينسى ميرسو . ذلك المظلوم المتوحش ، الذى لايحب أحدا ، بل ويجهل تماما ماهية الحب . ولا يجيد سوى اللامبالاة تجاه المخلوقات الإنسانية ، وتجاه ما يفعله هو نفسه .

ميرسو الذى ضاع من ضميره الإنسانى كل مابه من أوهام . وضاعت من إنسانيته مادة الإنسان المتمثلة فى مجموعة المشاعر . ولم يبق داخل كيانه سوى وزن يجره إلى سجن العادات .

دعونا نستمع إليه يتحدث عن أمه عندما دخلت إلى دار المسنين « كانت تبكى كثيرا فى الأيام الأولى ، وكان ذلك بحكم العادة ، ولكن ذلك لم يَدُمْ ؛ فبعد عدة شهور كانت ستبكى إذا ماانتزعناها من تلك الدار . كانت قد تعودت عليها » . نفس الشىء فى بداية فترة السجن ، كان يعانى لأنه كان قد تعود أن يفكر كرجل حر طليق . ولكنه مع الوقت كان قد تعود على أفكار السجناء . تعالوا نستمع إليه « لقد تعودت على السجن تماما ، حتى إنهم لو جعلونى أعيش داخل جذع شجرة جاف - دون أن يكون لدى شىء أفعله سوى النظر إلى السماء التى فوق رأسى ، فإننى لابد أن أتعود شيئا فشيئا على ذلك » . حتى التفكير نفسه ، لم يكن يخرج عن ذلك النطاق . فهو عند ميرسو نوع من التعود « فليست هناك أفكار لا يمكن ألا تتعود عليها » .

وفى الحالات التى لم تكن فيها العادات هى المسئولة عن تحريك حياة

ميرسو ، فإنه كان هناك شيء آخر هو الفعل ورد الفعل أو المؤثر والتأثير : فالشمس الملتهبة فوق جبهته تدفعه خطوة إلى الأمام ، وسكين العربى الذى يزيد الانعكاسات الضوئية المؤلمة لعينيه يدفعه إلى الضغط على الزناد . . وهكذا . فهو إنسان لايملك من أمر نفسه شيئا !

والبير كامى يشرح ذلك بقوله : « عندما ننزع الإنسان من ضميره فإننا نحوله إلى إنسان آلى النزعة » . ولقد كان ميرسو كذلك - على الأقل - حتى لحظة الحكم عليه بالإعدام .

نعود إلى أسلوب البير كامى فنجد أن السخرية والدعابة تولدان وتصلان إلى ذروتهما فى ظل التناقض والتضاد . فمن ناحية هناك ميرسو الحقيقى الذى لايعرف الكذب ويرسف فى أغلال آلية المجتمع وآلية العواطف ، ويعيش مع ذلك حرا من كل قيود الحب والذكاء والإرادة والبراءة والاتهام . ومن الناحية الأخرى هناك ميرسو المتهم وهو وحش ميكيافيلى الأخلاق ، لا إنسانى النزعة .

وهاهو ذا التناقض والتضاد يصل إلى مرحلة الكمال ، عندما يدخل القس إلى زنزانه ميرسو . فنحن أمام ميرسو الذى لايعرف ضميره سوى تلك القيم التى عاشها . والهوة عميقة والمسافة كبيرة بين الضمير والحياة من ناحية ، والاخلاق والدين من ناحية أخرى . ميرسو ليس متهما لأنه أضر بالقيم الاجتماعية عندما قتل رجلا . ولكن لأنه ثار ضد العدالة الإلهية . لقد كان مجرما وهو الآن مخطىء ، وإذا كان إعدامه سوف ينهى قضيته مع المجتمع فلا زال أمامه ما هو أهم ، ألا وهو طلب الصفح عن خطيئته .

كيف يستطيع ميرسو الذى يرتعد خوفا أمام رهبة الموت ، أن يؤمن بذلك

الدين الذى لا يستطيع أن يقدم سوى القليل من العون غير الملموس ؟ وهاهو ذا ألبير كامى يؤكد ذلك « إن الحديث عن الحياة الأخرى لرجل سوف نقتله لا يمكن أن يجدى شيئا » .

فإذا أضفنا أن كل تأكيدات القس لاتقوم على دليل ولا تساوى ـ كما قال ميرسو ـ « شعرة واحدة فى رأس امرأة » فإننا نكون قد وصلنا إلى قمة السخرية والدعابة من خلال ذلك التناقض العجيب .

وليس أمام ميرسو - والحال كذلك - سوى اللامبالاة . فليس هناك أهمية لأى شىء « ماالذى يهمنى إذا أحبت مارى اليوم ميرسو جديدًا ؟ » .

والبير كامى يواصل السخرية والدعابة حتى فى المواقف العصيبة ، عند محاكمة ميرسو . فنحن نعرف أن التعب والشمس هما المؤثر الحقيقى الذى بدأ المأساة . ولكن تلك هى بالضبط الأسباب التى لاتعترف بها العدالة ولا الأخلاق ؛ ولذلك فإن السلوك العفوى سوف يستدعى ليحقن بجرعات من النية والتعميد حتى يصبح مماثلا لسلوك الرجل الطبيعى فى مثل تلك الحالات . وعليه فإن إيداع أمه فى دار المسنين ، والتدخين ، والنوم وشرب القهوة باللبن ، والاستحمام ، ورؤية فيلم لفرنانديل ، واصطحاب صديقته تعتبر مجموعة من الأنشطة الاجتماعية التى لايمكن أن نعتبرها غير أخلاقية إذا لم يكن ميرسو قد ارتكب جريمة القتل .

ولكن لم يكن هناك من يهتم بالبحث عن النية الحقيقية لميرسو ، حتى إنه قد اعتقد « أنهم يعالجون تلك القضية بدونه » .

وهل هناك سخرية ودعابة أكثر من اتهامه بأنه ذكى وأنه يدرك مايقول . فيصبح الذكاء ـ وهو من مميزات الإنسان البرىء ـ قرينة ضد الإنسان

المتهم .

ولكن كيف لإنسان أن يحاكم إنسانًا آخر إذا كان الاثنان مذنبين ؟ . إن البير كامى يؤكد الإدانة الجماعية ، ويراهن على أن « كل إنسان مذنب ، ولكنه لايدرى . والمذنب من يعتقد أنه برىء » . ثم يصل إلى النتيجة الحتمية « إن هذا العالم الملىء بالآثام لم يصل إلى تلك الدرجة إلا لأن كل إنسان قد أعطى لنفسه الحق فى أن يحكم » . ولذلك فإن ميرسو عندما ثار على القس، راح يصرخ ويقول : إن هناك المليارات من المحظوظين الذين يدعون أخوتى ، وهؤلاء سوف يحكم عليهم يوما ما ، وإن القس أيضا سوف يحكم عليه .

ولم يكن ميرسو - حتى اللحظة التى حكم عليه فيها بالإعدام - سوى عبد آلي لمجموعة من القوى الداخلية والخارجية . ولقد راحت تلك القوى تدفعه إلى أن صار غريبا عن الآخرين ، ثم انتهى به الأمر إلى فقدان أفكاره حتى أصبح غريبا عن نفسه أيضا .

وها هو ذلك الغريب - بعد الحكم عليه وقبل أيام من إعدامه - وقد تخلى عن الجميع وصار وحيدا فى مواجهة الموت يقول : « إنه مستعد أن يبدأ الحياة من جديد » . ثم يفتح عيوننا على السعادة التى تنجم على حالة اللامعقول فيقول « فى ذلك الليل الذى يفيض بالنجوم ، أحسست للمرة الأولى بعذوبة ورقة اللامبالاة . وأحسست أننى كنت سعيدا فى يوم من الأيام، ولازلت حتى الآن » .

ذلك بالضبط هو ما كان البير كامى يحاوله طيلة حياته . كان يحاول دائما أن يجعل الفرصة قائمة أمامنا فى تلك الحياة . أو على الأقل أن يحتفظ لنا

بإمكانية بدء الحياة من جديد . حقا لم يكن للإنسانية « محام » دافع مثل بنفس الأمانة والحماسة والوضوح عن الحياة وعن سعادة الإنسان .

دكتور محمد غطاس

تصميم ورسوم محمد حجي



6 222006 300883